

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

MAG - 390 - 14

رقم الترخيص
996
رقم الترخيص
رقم الترخيص
رقم الترخيص

جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان

كلية الآداب و العلوم الإنسانية و الاجتماعية
قسم الثقافة الشعبية

تجليات الأسطورة عند طوارق الأهقار

دراسة سوسيو-أنثرو بولوجية

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير
في الأنثرو بولوجيا

الإشراف:

د. اوشاطر مصطفى

التقديم للطالب:

علي بوشيخي

أعضاء المناقشة:

- ا.د تيجيني بن عيسى رئيسا
- د. اوشاطر مصطفى مشرفا
- د سعيدي محمد عضوا
- د. محمد رمضان عضوا
- ا.د. عبد الحميد حاجيات عضوا

المنحة الجامعية 2005-2006

الاعتراف
بفكرة الاعتراف

أهدي هذا العمل المتواضع إلى كل شخص يؤمن
بفكرة الاعتراف بالتناقض والاختلاف على جميع
المستويات وإلى كل المغامرين في العالم.

شكراً وتقديراً
د. ٢٤٤٤ ٢٤٤٤ ٢٤٤٤ ٢٤٤٤

أتوجه بالشكر والعرفان إلى كل الأساتذة وخاصة
الدكتور المشرف أو شاطر مصطفى الذي أعانني بتوجيهاته
وإرشاداته القيمة وإلى كل الأصدقاء وزملاء العمل.

مقدمة

على الرغم من الاتصال الحضاري و عوامل التغيير و التقدم الثقافي السريع الذي دخل أغلب مجتمعات العالم اليوم و التقدم التكنولوجي الحديث الذي وصل إلى أبعد القارات و أعماقها و إلى أكثر المجتمعات انعزالا، فما زالت هناك بعض المجتمعات تعيش حتى اليوم حياة بسيطة ، لم يستطع الاتصال الحضاري و التقدم التكنولوجي دخول عالمها كما هو الحال لدى قبائل توارق الأهقار بالجنوب الجزائري.

هذه المنطقة التي بقيت لفترة طويلة معزولة جغرافيا و حضاريا ، ولكنها بقيت ملتحمة بالطبيعة حيث يظهر لنا هذا جليا من خلال تقسيم العمل و الارتباط القرابي و التضامن الاجتماعي، هذا المجتمع الذي تقوم الأسطورة فيه بدور فعال حيث تؤثر في حياة أفراد اليومية ، باعتبارها وسيلة عملية تقوم بإشباع حاجات توارق الأهقار المادية والعضوية.

إن طبيعة التغيرات الثقافية وشكل العلاقات الاجتماعية التي عرفها المجتمع الجزائري الذي لم يتخلص لحد الآن من تأثير الرواسب الثقافية الرمزية التي توارثها عن سيرورة تاريخية معينة بحيث الرجوع إلى رواسب الأسلاف و الإعتماد على نصائح الأجداد يؤسس وجود مجتمعا.¹

فمجتمع التوارق هو الآخر ضلت الأسطورة تحكم تفاعل الأفراد والجماعات و زادت من استمراريتها وديمومتها، و إعادة إنتاج الأفراد لنفس أشكال العلاقات التي عرفتها المجموعة القبلية وأيضا ديمومة هيمنة ثقافة العصبية من حيث بنية التصورات ونظام إنتاج

1- Wadi Bouzar. La Mouvense et la pose . Ed . Sned. 1983. P 66.

المعاني مما غلب على المجتمع طابع القداسة والانغلاق ولم يسمح بإحداث تراكمات ثقافية جديدة وبقي هذا المجتمع يعيد إنتاجه اليومي على أسس أسطورية وليس على أسس عقلية.

فأهمية الأسطورة تنطلق من اجتماعياتها وأصالتها وارتباطها العضوي بمفهوم العالم والحياة الاجتماعية والاقتصادية والروحية والجمالية، وتكمن قوتها في ضرورتها العلمية وتأثيرها الاجتماعي وغايتها العملية ومثلها العليا.

فلا يمكن الإحاطة بكل التصورات والممارسات ومكونات النسق الاجتماعي والثقافي لقبائل التوارق بل تركز بحثنا على دراسة ظاهرة الأسطورة ليس في كيفية نشأتها وطبيعتها وإنما في كشف تجلياتها بالمنطقة المدروسة مرتكزين على نموذجين من الأساطير ممثلين في أسطورة تين-هينان وأسطورة اللثام.

أسباب اختيار الموضوع:

إن اختيارنا للموضوع لم يكن اعتباطيا بل دفعتنا إليه عدة أسباب ذاتية وموضوعية.

1- الأسباب الذاتية:

من الأسباب الذاتية أننا نعمل بالمنطقة كمحافظ في التراث الأثري والتاريخي والمتحف بديوان حظيرة الأهقار الوطنية بولاية تمنراست مدة عشرة أعوام ، تعلمنا من خلالها الكثير من عادات التوارق فشاهدنا أفراحهم وأقراحهم وتعلمنا بعض المفردات من لغتهم فلم نقتصر على ذلك بل تحولنا حتى داخل متجععاتهم فحدثونا عن أمورهم ما كبر منها وما صغر .

- اهتمامنا بالثقافة الشعبية والتي تعتبر حقا من حقول الأنثروبولوجيا.

2- الأسباب الموضوعية:

- حاجة مجتمع التوارق إلى دراسة معمقة عن تراثه والتي لم تنل إلى القليل من عناية الباحثين.

- اطلعنا على ما كتبه الآخرون و هالي منه الكثير من المبالغات بعضهم لنقص التجربة، والبعض الآخر لعدم معرفتهم مجتمع التوارق.

الدراسات السابقة:

لم تقتصر على المعرفة المرئية والمعاينة بل اطلعنا على ما كتبه بعض المؤرخين و الرحالين الذين اعتنوا بتاريخ هذه المنطقة كإبن حوقل، ابا عبيد البكري، ابن بطوطة، ابن خلدون و كتابات بعض المعمرين و كتبات بعثات التنصير هذه الكتابات مثل ¹ (Reyggasse) فحركة المغامرين و مساهمتهم الكبيرة في توفير المعلومات اللازمة في الميادين الجغرافية، المناخية والإثنوغرافية للمنطقة ومدى مساهمة الجمعيات الاستكشافية التي لها علاقة مباشرة مع حكومتها والتي وضعت وسائل و تحفيزات معتبرة أهرت المغامرين الذين تدفقوا لمنطقة ورمي الأهالي بالتوجش و الهيمنة عليهم فالمستكشفون كانوا يتحدثون عن سكان الجزائر بنفس

الطريقة التي يعتمدها بحار غربي البابو (Papous) ²

التوارق معرضين أنفسهم للمخاطر فمنهم حتى من كان يتنكر في مهمات علمية ويعتبر شارل دي فوكو ³ نموذجاً لحركة التبشير التي عرفتها المنطقة، و بعض الكتاب المحدثين الذين تعرضوا لموضوع التوارق: محمد السويدي ⁴ و عبد السلام بوشارب. ⁵

أهداف الدراسة:

نسعى من خلال هذه الدراسة إلى إثراء المكتبة كون هذا العمل كان قريبا من واقع التوارق كما سيمثل هذا العمل حلقة مكملة لسلسلة البحوث و الأعمال الأنثروبولوجية

1-Reyggasse-notes numismatiques à propos du tombeau de tin-hinan, libyca, t.III, pp.179-183

2- فيليب لوكا جون كلود فاتان -جزائر الأنثروبولوجيين- منشورات الذكرى الأربعين لعيد الإستقلال. 2002-ص 7.

3-شارل دي فوكو 1858-1916 شخصية استعمارية استقر هذا المبشر في منطقة الأهقار حيث استقر بتمراست سنة 1905 قضى وقته في التقرب من التوارق وتعلم اللهجة التافيناغ وفي 1916 قله التوارق بوجه.

4-محمد السويدي - بلدو الطوارق بين النبات و التغيير دراسة سوسبولوجية - المؤسسة الوطنية للكتاب 1989.

5-عبد السلام بوشارب- أجماد و أجماد - المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر والإشهار-روية-1995

و التي لا تزال دائرة المعرفة العلمية بصفة عامة و الفكر الأثروبولوجي بصفة خاصة تفتقر الى وجودها و بشكل مكثف.
سنحاول توظيف و بشكل منهجي و علمي معظم المعارف الفكرية و الثقافية التي تحصلنا عليها خلال مدة دراستنا في مجال الأثروبولوجيا.

الإشكالية:

سنتناول إشكالية الثقافة الأسطورية عند توارق الأهقار من زاويتها المعرفية كمجموعة من التصورات والمعاني التي تنتجتها الأفراد عبر صيرورة حركتهم وانطلاقا من تفاعلاتهم الاجتماعية والمكانية التي شكلت وعيهم وإدراكهم الذاتي , كما سنتناول هذا الموضوع كمجموعة من التراكمات الثقافية الرمزية التي شكلت المخيال الجماعي للأفراد فعمكست صورة تفاعلهم مع الواقع المعاش وكشفت عن حقيقة وجودهم الإنساني ، كما نريد من خلال هذا الموضوع معرفة المسببات الثقافية التي ساهمت فيها الأسطورة كفكرة يعيها الأفراد وبالشكل العملي الذي وحدث عليه كأداة وظيفية وكفضاء تنظيمي .

ومن خلال هذا التقدم يمكننا طرح التساؤلات التالية:
إلى أي مدى يمكننا فهم إشكالية الأسطورة في ثقافة توارق الأهقار انطلاقا من خصوصية مضمونها الثقافي ومرجعيتها الرمزية ؟ وكيف يمكن للأسطورة أن تصبح واقعا يتجدد ؟
و أين تتجلى هذه الأسطورة ؟ وعلى أي شكل تظهر؟
إن للموضوع الذي نقترحه هو محاولة سوسيو- أنثروبولوجية لدراسة تجليات الأسطورة المطروحة على بساط البحث و هذا من خلال تقديم عرض عام لوصف و تفسير و تحليل نماذج من التجليات.

الفرضيات:الفرضية الأولى:

إن شكل وطبيعة البنية الاجتماعية والثقافية لمجتمع توارق الأهقار هو الذي أعطى استمرارية الأسطورة، كما أن طبيعة البنية التنظيمية الثقافية للمجتمع الترقسي هي التي حددت طبيعة البنية الوظيفية له ومن هنا يفترض هذا البحث وجود تجليات أسطورية تلعب دوراً أساسياً وهذا بوجود علاقة جدلية تربط الأسطورة بواقعها الاجتماعي وتوضح إبعادها وتحدد خصائصها وأن تجلي الأسطورة كحتمية اجتماعية لا يمكن أن تحدث تلقائياً وإنما لديها مسببات وعوامل أدت إلى ديمومتها.

الفرضية الثانية:

لقد أدت التغيرات التي مسّت البنية التحتية لمجتمع التوارق إلى تغيرات في سلوكهم ونشاطهم الأدائي في الحياة مما أدى إلى انصياع الفكر الأسطوري وفتح هذا التغيير انغلاقهم بحيث أصبحوا يتجهون نحو وحدة قانونية، سياسية، اجتماعية و اقتصادية متكاملة مع المحيط الكلي الجزائري.

المنهج وتقنيات البحث:

إن خصوصية الموضوع وشموليته وتشابك عناصره أين أصبحت الظاهرة المدروسة هي ذلك الكل المركب و الذي له علاقة بكل ما هو خفي بالتفسير الأسطوري للظاهرة لذا لا يمكننا دراسة الموضوع كعنصر مستقل مما دفعنا إلى الاعتماد على المنهج البنيوي العام الذي نحلل به الظاهرة الأسطورية عند توارق الأهقار، وأحيانا نستنجد بالتحليل الساكروني Synchronique أين ندرس الظاهرة في حاجزها (في مكانها) أي دون الرجوع إلى تاريخها أو مراحلها تكوينها، و هنا نعتمد على المنهج البنيوي الوظيفي باعتبار أننا نحاول الوصول إلى الوظيفة التي تؤديها الأسطورة في

الجماعات الاجتماعية و سلوكياتها ومعتقداتها، كما لا يمكن الاستغناء عن تقنية البنيوية
 الصورية التي نرجع بها إلى اللاشعور البنيوي لدى هذه الجماعة، أي نجد تأثير الظاهرة
 الأسطورية الخفية بشكل لا شعوري كمجموعة متناسقة و منسجمة بحيث السلوك
 الطقسي لهذه الجماعة سواء كان متعلقا باللباس أو الموسيقى أو الرقص أو زواج أو
 احتفال ما أساسه ظاهرة خفية وهي ما يسميها " كلود لفي ستروس " أنثروبولوجيا
 باللاشعور البنيوي¹، وكما سماه من قبل يونغ² في السيكلولوجية باللاشعور الجمعي
 وكما وضعه إميل دوركايم في السوسيولوجيا بالضمير الجمعي³.
 حتى نتجاوز ذلك العائق المنهجي الذي يفصل بين الجانب النظري و المعطيات الميدانية
 بحيث أننا لو تخلينا عن الجانب النظري سوف لن يؤثر كثيرا على البحث، فالمنهجية
 الحديثة تقتضي عملية التفاعل و التكامل المستمر بين الحقل النظري و الإستيعاب
 التطبيقي.

يستلزم هذا الموضوع توظيف مجموعة من التقنيات المنهجية والأدوات التحليلية التي
 نرى أنها ضرورية وذلك لمعرفة وبشكل دقيق تجليات الأسطورة .
 كما أننا استعملنا الملاحظة المباشرة بالمشاركة، و أن وجودنا بالمنطقة وفر علينا تكاليف
 البحث.

1- كلود لفي ستروس-أنثروبولوجية البنيوية-ترجمة محمد الفاتح العربي-دار النشر-بيروت 1987ص 38

2-د. ملحم قريان-قضايا الفكر السياسي - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ط1-1983ص111

3- نفس المرجع ص189

يتشكل هذا البحث من مقدمة و مدخل و فصلين و خاتمة:

المدخل : و قد خصص لعرض و تحديد الأثر الجغرافي و الأثر البيئي و أهم التطورات التاريخية التي شكلت ذهنية توارق الأهقار.

الفصل الأول : خصص لعرض الحياة الاجتماعية و الاقتصادية لتوارق الأهقار و التحليلات الأسطورية التي تتخلل البنية الاجتماعية و التي شكلت وعي الجماعات و عرض النسق الإيكولوجي و تأثيره على الحياة الاقتصادية.

الفصل الثاني: خصص هذا الفصل لإبراز أهم الأشكال و الممارسات الثقافية و إبراز الدلالات الأنثروبولوجيا و الاجتماعية والتحليلات الأسطورية التي تتخلل هذه الممارسات من خلال اللباس و الفنون الإيقاعية و الفنون التقليدية.

الخاتمة: أوضحنا قيمة و إسهام الأسطورة في تشكيل النظام الاجتماعي و كيف استوعب التارقي العالم المحيط به و بينا كيف أن الأساطير هي وليدة البيئة الصحراوية والعلاقات الاجتماعية التي نشأت فيها، و حقيقة الواقع الوجودي والاجتماعي الذي يعيش فيه التارقي، وأوضحنا أن الأسطورة لها دورا هاما في الفلكلور الشفاهي وربطها بالشخصية الأسطورية تن -هناك و أسطورة اللثام التي تظهر على شكل رموز.

مفاهيم البحث الإجرائية:

التجليات:

هي المظاهر التي تتجسد فيها الأشياء التي تحمل في شكلها و مضامينها دلالات و معاني اجتماعية و ثقافية تسجل حضورها و هيمنتها في أنماط التفكير و التعبيرات و الممارسات الاجتماعية و الثقافية و السياسية للمجتمع. فالتجلي هو التماثل و الحضور الذي يعطي لثقافة ما خصوصيتها و أصالتها و تميزها عن الثقافات و الحضارات الأخرى.

الأسطورة:

الأسطورة ظاهرة إنسانية ثقافية ، تروي تاريخاً مقدساً أو حدثاً تم في الزمن البدائي، تجري أحداثها في زمن مقدس هو غير الزمن الحالي و تتمتع بسلطة عظيمة على عقول الناس و نفوسهم¹، و ما يميزها عن الخرافة هو الاعتقاد فيها، أي تتحول إلى حقيقة يؤمن بها الأفراد فتصبح المصدر الذي ينتج العلاقات الاجتماعية والنظم الثقافية حيث تحظى بالاحترام و القداسة.

القبيلة:

تعرف القبيلة بأنها وحدة اجتماعية تظم عدة عشائر حيث تقوم الروابط الاجتماعية بين أفرادها على النسق القرابي (رابطة الدم و النسب) و يشترك هؤلاء الأفراد في الأنماط الثقافية و المكان و اللغة و الحضارة و يسود بينهم التعاون و التضامن الاجتماعي الذي يظهر بشكل جلي² عندما يواجه القبيلة خطر خارجي، و يحكم القبيلة شيخ يحظى بالاحترام و الطاعة و الولاء، و يعينه في تدبير شؤون القبيلة مجلس القبيلة الذي يتكون من شيوخ القبيلة²

1 فراس سواح : الاسطورة و المعنى، ط2، 2001، ص13.

2-عاطف و صفي، الأنثروبولوجيا الاجتماعية، ط3، 1981، ص113

العصبية:

يصعب تحديد هذا المفهوم في فكر ابن خلدون , فيصرح بأنها النسب و القرابة الدموية أو الإلتواء إلى الجماعة بعلاقة الرحم 1، و لقد حددها محمد عابد الجابري بأنها (رابطة إجتماعية سيكولوجية شعورية ولا شعورية تربط أفراد جماعة معينة قائمة على القرابة المادية أو المعنوية ربطا مستمرا يبرزو يشتد عندما يكون هناك خطر يهدد أولئك الأفراد أو الجماعة) وهذه الرابطة هي الأساس لدى تبنى عليه سياسة كل العلاقات الموجودة داخل أي تنظيم²

المقدس:

الذي يحمل حقيقة جوهرية تكمن في ضرورة وجوده في حياة الأفراد يعكسون من خلاله طبائعهم، وجودهم وطريقة تفكيرهم ومنهج تفسيرهم للعالم، لذا كلما شعروا بضيق أو خطر يهددهم لجئوا إليه وطلبوا منه الحماية والأمان. وأحيانا يسقطون عنه رهبته ويحققون معه أقصى درجات الإلتحاد ومن خلاله يتطلعون إلى تعديل أوضاعهم الراهنة ويرى موس أن الأشياء المقدسة هي بالضرورة أشياء اجتماعية.³

1-مقدمة ابن خلدون، ط، دار الكتاب اللبناني، الجزء الثاني ص439

2-محمد عابد الجابري، العصبية والنولة دار الطليعة بيروت ص 456

المدخل

جغرافية المنطقة وتطورها التاريخي

أولاً: تقديم الموقع جغرافياً:

1. الموقع.
2. لحة عن جيو- مورفولوجية الأهقار.
3. الأتاكور وسلسلة التطورات والظواهر البركانية.
4. الأسطورة والجبال.

ثانياً: تطور منطقة الأهقار منذ مرحلة ما قبل التاريخ:

1. الأسطورة والتاريخ.
 2. التطور الحضاري و البشري- خلال العصور الحجرية القديمة:
 - * فترة العصر الحجري القديم الأسفل .
 - * فترة العصر الحجري القديم الأوسط.
- التطور الحضاري خلال العصر الحجري الحديث وفجر التاريخ:

ثالثاً: أثر البيئة على حياة التوارق:

- 1- الأسطورة و اسرار الطبيعة.
- 2- طبيعة البيئة الصحراوية .

المدخل جغرافية المنطقة وتطورها التاريخي

أولاً: تقديم الموقع جغرافياً:

إن الكلام عن منطقة تمنراست، يؤدي لا محالة إلى التطرق لأقدم و أعرق الحضارات الإفريقية و العالمية التي تشهد عليها تلك الرسوم و النقوش الحجرية الرائعة المنتشرة عبر أكبر متحف على الهواء الطلق (الهقار - التاسيلي) لحضارات ما قبل التاريخ. الهقار هو أيضاً التقشف، الشعر، الإخلاص، التضحية، الكرم و الجود و السخاء . يعتبر أيضاً المكان الذي بلغ فيه ذروته تزاوج الإنسان مع الطبيعة، و هو كذلك مركز حياة في تغير و تحول مستمر، يحتل فيه النشاط التجاري و السياحي مكانة مرموقة. و لعدة اعتبارات تبقى هذه المنطقة مغروسة في الأذهان، سواء كان ذلك فيما يتعلق بشمال الوطن أو بإفريقيا العميقة.¹

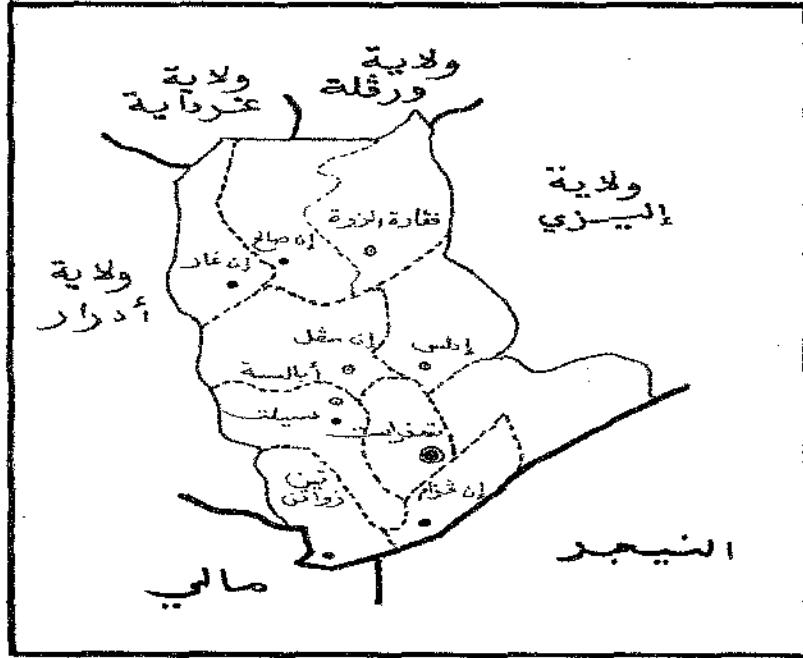
1- الموقع

تقع ولاية تمنراست في أقصى الجنوب الجزائري بمساحة تقدر بـ 557.906,25 كلم² أي ما يعادل ¼ مساحة الجزائر. و تم تصنيفها ولاية في سنة 1974، و هي حالياً تضم 10 بلديات و 07 دوائر. في إحصائيات سنة 1998، بلغ عدد سكانها 150761 نسمة ما يعادل 0,27 نسمة في كلم² من خلال موقعها الجغرافي المتواجد في قلب الجزائر، فلقد كانت دائماً منطقة تمنراست بمثابة الحلقة التي تربط بين الشمال و الجنوب².

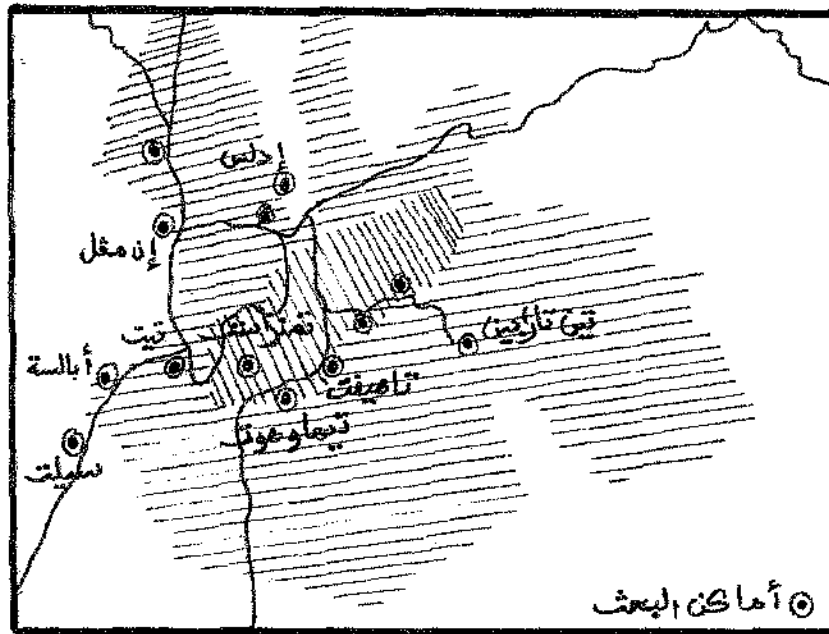
و كانت منطقة الأهقار همزة وصل و مسلك لجل القوافل التي تعبر طريق التديكلت - تمنراست - أقداس - تمبوكتو - قاو.

1- إحصائيات سجلات بلدية تمنراست

2- المرجع نفسه.



شكل رقم 01 مستخرج من سجلات بلدية تمراست



شكل 02 يوضح أهم مواقع البحث لمهندس دولة بديوان
حاضرة الآهقار الوطنية لولاية تمراست

2- لمحة عن جيو- مورفولوجية الأهقار:

يمثل الأهقار كتلة تضاريسية موحدة النمط ومختلفة كل الاختلاف عن تضاريس بقية الصحراء من حيث بنيتها المورفولوجية، فهي عبارة عن كتلة صخرية تغطي مساحة بحوالي 375000 كلم منحصرة بذلك بين كل من هضبة تديكلت شمالا، التزروفت غربا وصحراء تنيري " شرقا، تظهر وبشكل كبير وسط تكوينات رسوبية ترجع إلى فترات متأخرة¹.

فالأتاكور أو ما يعرف " بالكدية " يشكل قمة الأهقار نظرا لموقعه الوسطي في المنطقة ويعتبر أعلى جزء فيها بحيث يبلغ ارتفاع قاعدته 900 على 1000 م بينما يكون ارتفاعه في المتوسط بـ 2200 م ، والجبال الأكثر ارتفاعا في المنطقة تقرب من 3000 م . أما أكبر عرض للمنطقة فيصل إلى 139 كلم ، يبلغ هذا العرض في المتوسط من 90 إلى 100 كلم .²

بفضل موقعه الوسطي هذا و إرتفاعه الكبير فإن الأتاكور يتحكم في مجمل الشبكة المائية للصحراء الوسطى ، فهنا تشكلت أكبر الأودية التي كانت مجاور بها في وقت سابق حتى شطوط ، النيجر و التشاد³ .

وهي واحدة من المناطق الأكثر إثارة للإعجاب في الأهقار بحيث يعتبر المرور من خلالها صعب والارتفاع هنا كبير نوعا ما ، وفي مساحات ضيقة ومفاجئة وهنا تظهر أعلى القمم " إلمان " 2760 م ، تاهاة " 3000 م . " أسكرم 2728 م أما الأتاكور الأسفل فهو يعتبر أقل إلتفا⁴

1- LHOTE (H) LE HOGGAR -espace et temps .paris, Armand en vin 1942p25

2-IBID .P33

3- ROGNON (P) 1967 de massif de l'atakor et ses bordures (sahra cesstral)

Étude géomorphologique paris C.N.R.S.P

4-ارشيف ديوان حضيرة الأهقار الوطنية لولاية تمنراست

3- الأتاكور وسلسلة التطورات والظواهر البركانية:

يتميز الأتاكور عن بقية المنطقة بالظواهر البركانية هذه الظاهرة التي عرفت بها بعض النقاط من الأهقار . فالمنطقة التي عرفت هذا النشاط في الأتاكور نجدها ممثلة في المساحة التي تشكل القمة والتي تكون مغطاة بتراكمات من البازلت ويصل سمكها إلى عشرات أمتار وأحيانا يكون بين 200 إلى 250 متر ويتميز هذه المساحة بوجود فتحات أرضية وجدت نقاط أخرى تشابهها في الجنوب " الأمد غور " والتي يمكن أن ترجع إلى نهاية الكريتاسي وبداية الأيوسين تأتي فوقها مباشرة طبقة الحمم وبصفة خاصة الدنيا منها والتي تكون ف بالأسفل من طبقة البازلت وهكذا تتشكل الصورة الحقيقية لهذا النظام البركاني من خلال بنية التي تكونت عن طريق الصخور المقذوفة هذه الظاهرة قلما شوهدت في بقية أنحاء العالم ، ويشكل متكرر ، كثير ومتنوع وقد سجل الباحث (P) BORDET 300 حالة من هذا النوع في مساحة لا تتعدى 20-40 كلم وهو بذلك يشاهد الشكل الفريد لرؤوس وقمم الجبال والتي قلما شوهد مثلها في بقية أنحاء الهقار وذلك بالشكل التالي :

- بعض القمم التي تكون على شكل بروز لرؤوس الجبال المنعزلة نشاهد من حين لآخر كلما اتجهنا شرقا في المنطقة البلورية بالقرب من تازروك

- تظهر في الجنوب الشرقي من الأمد غور تشكيلات ضخمة من الرق ولكنها محصورة ومصحوبة بتكوينات شبه بركانية غير معروفة في الأتاكور.¹

- في الجنوب الغربي من الأتاكور نجد إن القمم الكثيرة ارتفاعا والمطللة على " تاهلفت " والتي تكون على شكل بروز تشكل قمم الجبال بنية من حجر التراكيب الكوارتزي ذات الارتفاع الضعيف .

1) ROGNON (P) 1967 op cit p 56

4- الأسطورة والجبال

ارتبطت الأسطورة لدى قبائل التوارق بالجبال وأصبح تفسير الظواهر الطبيعية بالأساطير حيث كل جبل يحمل أسطورة معينة - انظر ملحق الأساطير- وللجبل قيمة خاصة في المجتمع فهو ليس مجرد جبل بل يرمز تارة للحياة والشجاعة وتارة الى الحكمة والخلود.

وفي مسار التكوين القدسي، تعتبر الأسطورة الجبل أحد محاور الكون، والأداة التي تسمح لإنسان الأرض بالاتصال بالكائنات أو بالكائنات العليا . فهل يستمد الجبل قداسته من ارتفاعه مثلا ؟ يعتبر الإنسان الأسطوري أن جبله - هو بالذات- أكثر ارتفاعا (حتى إذا لم يكن كذلك جغرافيا) من جبال الآخرين، و هو بالتالي أقرب ما يكون إلى السماء.¹

كانت الأسطورة العربية تعتبر أن الأماكن المقدسة هي في أعلى مرتفعات العالم (عالمها طبعا)، و أن جبل أبي قبيس في الحجاز لبس جبلا عاديا: أنه مسؤول ، ناطق أمين مقدس. وهذه الحكاية الأسطورية تكشف لنا سر الجبل و خروج الحجر الأسود منه (الحجر المقدس بدوره كما سنرى): " بينما إبراهيم يبني البيت إذ ناداه جبل أبي قبيس : يا إبراهيم أن لك عندي وديعة فخذها ، فلما دنا منه انشق الجبل و خرج منه الحجر الأسود". كما أن الجبل يتحول إلى شيء ثمين و مقدس بمجرد أن يلامسه كائن قدسي: " و لما صعد موسى الجبل لمناجاته ربه، صار عقيقا، فلما نزل موسى عاد إلى حالته الأولى"²

1- د. خليل احمد خليل - مضمون الأسطورة في الفكر العربي- دار الطليعة للطباعة والنشر - بيروت 1986 ص 56

2- المرجع نفسه ص 56

ثانياً: تطور منطقة الأهقار منذ مرحلة ما قبل التاريخ:

1- الأسطورة والتاريخ:

ان تاريخ المجتمع الجزائري يمر بطابع الاستمرارية والديمومة على مستوى طبيعة العناصر الثقافية والاجتماعية¹ و إعادة إنتاج أي موروث ثقافي رمزي والحفاظ على استمراريته وفعاليته وتناقل معطياته خاصة وفق اسلوب التبليغ الشفوي لا يمكن ان يتم الا في حالة وجود مجموعة اجتماعية و بنى تنظيمية مهما كان حجمها لها الإمكانيات الكافية و الوسائل التبليغية الضرورية للإبقاء على ديمومة هذا المخزون الذي يجسد في نظر الأفراد قيمة رمزية و تاريخية .

فالأسطورة و التاريخ ينشأن عن التوق إلى معرفة أصل الحاضر فهي وسيلة يفهم الإنسان من خلالها نفسه و يعي شرطه² فتوقنا الآن لقراءة وفهم التاريخ عن ذات الموقف القديم الذي كان يدفع أسلافنا لتلاوة الأساطير والاستماع إليها. أما الصلة بين الأسطورة والتاريخ فهي قوية جدا فالمادة الأسطورية مصدر هام للمادة التاريخية، ولفهم حقيقة العالم القديم، فقد كانت الأسطورة هي الوعاء الذي وضع فيه الإنسان القديم خلاصة فكره وأحداث حياته ومضمون حركته³.

1-ABD-ELRAHIM LAMCHICHI L'ALGERIE EN CRISE Ed Harmatan 1991 p183.

2-فراص سواح:مرجع سابق ص91

3-Nour Eddine saoudi – les Temps préhistoriques en Algérie- Edition Dalimen 2002 P 80

2- التطور الحضاري و البشري- خلال العصور الحجرية القديمة:

عندما بدأ الإنسان القديم يتحسس ملامح العالم في محاولة لاستئناس ظواهره المتوحشة وأحداثها المفاجئة وتقلباته الحادة، لم يكن العقل الإنساني شب عن الطوق واكتملت له الأدوات التي تمكنه من رصد الظواهر وتحليلها وفهم قوانينها وآليات حركتها، ومن ثم التحكم فيها، لم يكن العقل الإنساني عقلا علميا، لهذا لجأ الإنسان إلى الأسطورة، واستمد توازنه من تلك القصص الخيالية الخرافية التي يفسر من خلالها ظواهر الكون والطبيعة وقصة الخلق وغيرها من الظواهر التي لم يكن بمقدوره أن يستظهر قوانينها العلمية ويسخرها لصالحه.¹

يدل التنوع الثقافي و البيئي للأهقار و الاهتمام به على المستوى الوطني و الدولي على أن هذا الإرث بالغ الأهمية إذا يعبر جزء من ذاكرة البشرية وأن الحفاظ عليه في مهمة الجميع ، فلا يمكن حصر عملية الحفاظ عليه في مؤسسة واحدة ، و إنما بتأتي ذلك بتضافر الجهود سواء المحلية أو الوطنية.²

اما في ما يخص منطقة الأهقار فالدراسات الأثرية للعديد من الباحثين امثال هنري لوت ، ريقاس ، قاست وغيرهم أدت إلى تميز فترتين هامتين هما :

1-فترة العصر الحجري القديم الأسفل: Paléolithique ancien

2-فترة العصر الحجري القديم الأوسط: Paléolithique moyen

1- JOURNAL OFFICIEL DE LA REPUBLIQUE ALGERIENNE N°44 1986.

2-BOUZIANE BEN HADRI . AU FIL Des TEMPS MODERNE ED. SNED 1987 P73.

1- فترة العصر الحجري القديم الأسفل:

لقد تم تأريخ هذا العصر من 700 ألف إلى 40 ألف سنة قبل الميلاد. تتميز بوجهين ثقافيين أو حضارتين هما حضارة الحصى و الحضارة الأشولية .
فلقد اكتشف العديد من الواقع تحتوي على بقايا لصناعة حجرية تتمثل في حصى مهياة .
وهي عبارة عن حجارة تم تقصيبها من اجل استعمالها .
فالجدير بالذكر هنا ، أن الحصى استعملت " كأداة " وكذلك كسلاح وأما الوجه الثقافي الثاني لهذه الفترة الذي سمي بالأشولي نسبة إلى موقع " سانت أشول " بفرنسا فيتميز بتطور تقني هام أدى إلى إنتاج العديد من الأدوات الحجرية التي بدأت تأخذ أشكال و أحجام مختلفة من بين الأدوات الأكثر استعمالا نجد ذوات الوجهين والفؤوس اليدوية مثل موقع الهامة بالأهقارو موقع ان قزام .

لقد عرفت المنطقة خلال هذه المرحلة تقلبات مناخية هامة كما من بينها مراحل المطرة التي أدت إلى تشكيل العديد من الأحواض المائية في جميع أنحاء الصحراء فهذا المناخ أدى إلى تكوين غطاء نباتي كثيف ازدهرت فيه ثروة حيوانية متنوعة .

2-فترة العصر الحجري القديم الأوسط:

وتمتد هذه الفترة في الصحراء من 40 ألف إلى 20 ألف سنة قبل الميلاد, وعرفت هذه المرحلة أو الفترة وجهين ثقافيين هما: الوجه الثقافي الموستري والوجه الثقافي العاتري.¹
تعتبر هذه الحضارة ميزة لمنطقة المغرب وقد عرفت كالحضارة السابقة من خلال البقايا الحجرية التي وجدت في أكثر من 200 موقع بالأهقار ومن بين هذه المواقع نذكر أراك , آقنار و ما يميز هذه المرحلة أو العصر هو التطور التقني و الذهني لإنسان ما قبل التاريخ فأصبح يصنع الأدوات الحجرية المختلفة. هذا ما جعل الإنسان يصنع أشكال و أدوات حجرية متشابهة ومتماثلة هذا من جهة ومن جهة ثانية سمحت هذه التقنية بصناعة أنماط مختلفة من الأدوات مثل المديبات أو الشظايا.

3- التطور الحضاري خلال العصر الحجري الحديث وفجر التاريخ:

يمكن اعتبار العصر الحجري الحديث كأعظم درجة للتطور توصل إليها إنسان ما قبل التاريخ فيمكننا تسميته بالعصر الذهبي، حيث شهد هذا العصر تطورات هامة حيث تحول من نمط يعتمد على الاستهلاك إلى نمط منتج تطور في عدة ميادين اقتصادية وتقنية، و بين العناصر الجديدة التي أدخلها الإنسان على نمط حياته الزراعة. الذي نتج عنها تطور آخر تقني صناعي يتمثل في إنتاج الفخار و أدوات الطحن من مدقات و مطاحن حجرية وتمثل هذا التطور في: ²

- الصقل الحجري : وهو صقل الأدوات الحجرية . استعمال هذه التقنية سمح بإنتاج أدوات جديد مثل الفؤوس المختلفة التي استعملت في عدة ميادين وكذلك أستعمل الصقل في صناعة أدوات الزينة و الحلبي.
- استئناس الحيوانات : من بين الحيوانات المستأنسة نذكر : الكلاب الكباش ، البقر ،فتظهر في العديد من الرسومات و النقوش الصخرية المنتشرة بالأهقار .
- الاستقرار : إن تغير نمط المعيشة وكذلك العناصر الجديد التي دخلت في الحياة إنسان العصر الحجري الحديث أدت به إلى الاستقرار و التمرکز في أماكن معينة وتكوين قرى بدائية .

1-الوجه الثقافي الموستيري : سمي كذلك نسبة للموقع الذي اكتشف فيه لأول مرة وهي مغارة موستير بفرنسا ، هذا الوجه الثقافي قليل الانتشار وفي الجزائر لاسيما منطقة الأهقار ومن بين المواقع القليلة نذكر اسليسكن .
الوجه الثقافي العاتيري : وسمي كذلك نسبة للموقع الذي اكتشف فيه لأول مرة وهو واد الجبانة (بئر العاتر) بولاية تبسه .
إن تطور الصناعات الحجرية وكذا التقنيات المستعملة فيها يدل على درجة عالية من التطور الذي وصلت آليه المجموعات البشرية لهذه المرحلة. أما فيما يخص الجانب المناخي فتطورت الحضارة العاترية خلال مرحلة ممطرة أدت إلى تشكيل مناخ الذي تعرفه بعض بلدان الساحل حاليا تبين لنا أبرز الحضارات التي شهدتها المنطقة أن استيطان.

• الفن:

تحتل المنطقة مكانة هامة ضمن المواقع العالمية للفن الصخري إذ تعتبر أكبر مناطق تتركز فيها الرسومات الصخرية . كان الفن الصخري منذ اكتشافه في القرن السابق موضوع لعدة دراسات وصفية تمهيدية وتحليلية للمراحل الأربعة المتمثلة في:

1-مرحلة الرؤوس المستديرة: تعود إلى 10 آلاف سنة ممثلة فقط بالرسومات الصخرية, تتميز هذه الفترة برسومات إنسانية تبين رؤوس مستديرة الشكل ينحصر توزيعها في منطقة طاسيلي بالأهقار و فزان بليبيا.

2-مرحلة الثور العتيق: أو ما يسمى بالمرحلة الطبيعية عرفت هذه المرحلة عرفت هذه المرحلة انتشارا جغرافيا واسعا بالإضافة إلى مناطق الأهقار ، تتميز بنقوش طبيعية تتمثل في غالب الأحيان في حيوانات متوحشة ذات أحجام كبيرة ويعتبر الثور العتيق من الأشكال الأكثر تمثيلا حيث تم اكتشافه في العديد من المواقع بالأهقار والطاسيلي منها موقع إبهلافن بضواحي مدينة تلمسان.

3-المرحلة البقرية : 6 آلاف سنة و سميت كذلك كون البقرات من بين الحيوانات الأكثر تمثيلا في هذه الفترة تم اكتشاف العديد من المناطق بالأهقار من بينها عدة مواقع بمنطقة "التفداست".

4- مرحلة الأحصنة: 4 آلاف سنة قبل الميلاد

تتميز هذه المرحلة بتمثيل الحصان سواء كان ممتطيا أو يجر عربة ، تنسب عدة مواقع في منطقة الأهقار ومرحلة متأخرة سميت بمرحلة الجمال منذ ألفين (2000) سنة قبل الميلاد. شهدت هذه المرحلة تعويض الحصان بالجمل وكذا ظهور الكتابات اللولبية البربرية في أواخر المرحلة .

من خلال هذا التقديم يمكننا اعتبار الفن الصخري كأقدم دليل على الإبداع الفكري و الفني للإنسان على عكس البقايا الحجرية التي لا نمدنا بالكثير من المعلومات.

إن الفن الصخري يعطي صورة واضحة عن حياة الناس حيث يمكننا تتبع التطورات والتغيرات التي يمكن أن تحدث داخل المجموعات البشرية.

إن الدراسات التحليلية للفن الصخري بينت أن هذا العنصر الهام يساعد في معرفة الشعوب ونشاطاتها خلال العصر الحجري الحديث و التطور الثقافي للإنسان. بعد نهاية العصر الحجري الحديث تمر المنطقة بفترة انتقالية تمهد للفتحات التاريخية تدعى هذه الفترة بفجر التاريخ و تتميز بكونها عصر المعادن أي شهدت استبدال استعمال الحجاره بالنحاس و الحديد.

في هذه الفترة تم أيضا الفصل النهائي بين عالم الأحياء و عالم الأموات وذلك بتشديد المعالم الجنائزية المختلفة الأشكال و الأحجام، فحسب اعتقادنا هذا الاختلاف ناتج عن المرتبة الاجتماعية للإنسان أو الجماعة المدفونة فيه أو يكون مرتبطا بالطقوس والعادات التي كانت تمارس في تلك الفترة.

فخلال هذه الفترة تطورت الكتابة اللولبية البربرية التي أدت فيما بعد إلى التيفيناغ الحالي المتداول عند توارق الأهقار.¹

ومن هنا يمكن ربط الأسطورة بالفنون والآداب و كأنها علاقة اندماج كامل من حيث الاستفادة الفنون والآداب بعناصر الأساطير، وبما يكمن فيها من أحيلة بمنححة تلهم الأدباء والفنانين أيضا من الصور التي يعبرون من خلالها عن المعاني والرؤى والأساطير.

من ناحية أخرى تضيف الأسطورة مادة زاخرة للثقافة الشعبية أو للفلكلور مثل الشعر الشعبي والأمثال والحكايات الشعبية والألغاز، وتشارك الأساطير والفنون الشعبية في أن كلا منهما مجهول المؤلف وكلا منهما ينقل شفاهة جيلا بعد جيل فتضيف إليه المخيلة الإنسانية ما تراه صالحا وتحذف منه ما تجاوزه الزمن²

1-Nour Eddine saoudi – les Temps préhistoriques en Algérie opcit 128

2-محمد علي جندان: الفنون الشعبية بين الواقع والجهول. البيت اللبناني للطباعة 1989، ص87

ثالثاً: أثر البيئة على حياة التوارق:

يطلق على المنهج المحلي (نسق الإيكولوجي *écosystème*) ويعتبر الإنسان جزءاً هذا النسق ، و تدرس الإيكولوجية الوسائل التي من خلالها تتفاعل كل الكائنات الحية داخل البيئة كما تدرس علاقات تأثير وتأثر الكائنات مع الوسط الذي تعيش فيه .¹

يرتبط المجتمع الإنساني ارتباطاً وثيقاً من خلال عملية تبادلية للمواد الإنتاجية والاستهلاكية حيث تمده البيئة الطبيعية بكل العناصر والظروف الملائمة للإستمراره ويحصل الإنسان على هذه المستلزمات عن طريق استخدام أعضاء جسمية بدون وسيط خارجي .

ان العوارض البيئية والاجتماعية نحتت مع الزمن المخيلات الإنسانية لتهيئها إلى تقبل الأسطورة . أولاً ثم إلى التثبيت بها حقيقة من حقائق الوجود و البحث الدؤوب عن هوية و الدفاع المستमित عنها هو الذي فجر إبداع الأساطير و بخاصة أساطير التكوين.

ويظهر الإنسان ككائن اجتماعي داخل جماعة معينة هدفها تحقيق أقصى إشباع ممكن لاحتياجاته عن طريق العملية الإنتاجية، ويستخدم في دوراته الطبيعية دون فصلها عن البيئة الطبيعية.²

إن الحياة البشرية مرتبطة بالبيئة الطبيعية و لها علاقة وطيدة بالمحيط الخارجي، حيث انشغل العديد من العلماء بهذه القضية و التي أطلقوا عليها قضية "العلاقة الإنسانية-البيئية"³. فتعددت النظريات التي تحدد أنواع العلاقات المتغيرة:

1- محمد عجيب - مسرعة اسائر العرب عن الجاهلية ودلائنها - دار الفرائي بيروت 1994 ص 97

2- إدريس خضير - التفكير الإجتماعي الخلدوني - مؤسسة الوطنية للكتاب - 2003 - ص 182

3- المرجع نفسه ص 185

1- الأسطورة و اسرار الطبيعة:

جاء في تعريف الأسطورة " إنها حكاية إله أو كائن خارق، تفسر بمنطق الإنسان البدائي ظواهر الحياة و الطبيعة و الكون و النظام الاجتماعي، وأوليات المعرفة، وهي ترجع في تفسيرها إلى التشخيص و التمثيل و التحليل، وتستوعب الكلمة والحركة والإشارة و الإيقاع، وقد تستوعب تشكيل المادة، وهي عند الإنسان البدائي عقيدة لها طقوسها " ¹ فالأسطورة هي محاولة لفهم الكون بظواهره المتعددة أو هي تفسير له، إنها إنتاج و ليد الخيال، ولكنها لا تخلو من منطق معين و من فلسفة أولية، وعلى هذا فإن الأسطورة الكونية شأنها شأن الفلسفة تتكون في أولى مراحلها عن طريق التأمل في ظواهر الكون المتعددة و التأمل ينجم عنه التعجب كما أن التعجب ينجم عنه التساؤل، فإذا تساءل الإنسان، طلب الإجابة في إصرار عن سؤاله، حتى إذا وجد الجواب عن سؤاله قرت نفسه، لأن الإجابة حينئذ تكون حاسمة بالنسبة إليه، فإذا تمثل الكون للإنسان بهذه الوسيلة عن طريق السؤال و الجواب فإنه يتكون بذلك شكل تسميه الأسطورة الكونية ².

فالتبيعة بمظاهرها المختلفة و المتعددة، تعد المعطى الجوهر و الأساس الذي أثار تساؤلات ذلك الإنسان الأول، أدهشته قواها و أثارت مخاوفه، فحاول أن يجد لها تفسيراً، فكان أن قاده خياله إلى الاعتقاد بوجود كائنات عديدة تملأ الكون تحكمه و تسطير عليه و تتحكم فيه و تخضعه لمشيقتها و إرادتها. فالقدر القاتل و المصاب الوحيد الذين قد يتسلطا على مجموعة إنسانية ما ويجرماتها من تحقيق ذاتها وطبيعتها هي العزلة والانغلاق والاعتزال الحضاري. ³

1- صلاح ابو فلح-الأسطورة-دار حفص تونس 1983. ص 27

2- نبيلة إبراهيم- أشكال التعبير في الأدب الشعبي - دار المعارف - ص 19.

3- المرجع نفسه ص 63

إن حياة ذلك الإنسان الطبيعية أتاحت له فرصة التأمل في مظاهر الطبيعة و تمييز قواها و عناصرها و خصائصها و نظامها، كما لفتت انتباهه التغيرات الجوية و تأثيراتها المختلفة في مظاهر عالم الأرض و السماء، مما طرح أمامه سلسلة غير متناهية من الأسئلة المختلفة المتعلقة بالبداية و النهاية، و الخالق و المخلوق و الكون و الكائن، و الوجود و الموجود، فأخذ ذلك الإنسان يحاول الفهم و التفسير ضمن حدود إمكانياته، الفكرية و قدراته العقلية مستغرقا في آفاق التأملات و عالم البحث و التطلعات " فتصور أن كل ما في الكون ينبض بالحياة و أن لكل منها قصة أسطورية تصور العالم مملوءا بالآلهة المتجسدة في قوى الطبيعة و مظاهرها المختل. ¹

لقد واجه الإنسان الأول أفكار القدر المحتوم و المصير العسير، و دور المفاجآت في تغيير الوقائع، و كان مفهوم الحظ من المفاهيم التي ظهرت في مخيلته فراح يجسدها في صور إنسانية و يمنحها كل احترام و تقديس و ينسب إليها أسباب النجاح و عوامل الفشل في مختلف ميادين الحياة، و قد تصورها في صورة امرأة معصوبة العينين و ذلك إشارة إلى قيامها بمنح السعادة بشكل اعتباطي و فجائي " ².

الأسطورة إذن تجسد خيال ذلك الإنسان البدائي و تمثل فكره و تدل على أولى محاولاته في فهم القوى الطبيعية المختلفة التي تأمل الإنسان فيها طويلا محاولا تحليلها و تفسيرها و شرحها و تبريرها فتراءت له في لحظات كالغيوبة أفكارا توارثتها الأجيال المتعاقبة.

1- صلاح ابو فلح-الأسطورة- مرجع سابق ص 83

2- بشير زهدي - مقدمة في الميتولوجيا - عالم المعرفة - عدد 46 ص 22.

تمثل فروغ بينيوس هذه الحالة أو اللحظة التي تولد فيها الأسطورة بحالة الكشف الصوفية، حيث تتبدى الأشياء أو الحقائق في لحظة محددة تستوجب تأملا ووعيا كبيرين، وقد يكون إتقادا كليا بهذه الأشياء، فهو يرى "أن جوهر الأشياء يمسك الإنسان و يمتلكه في أية عملية إبداع، فتأخذ من الحقائق التي تحيط به معرفة أعمق و ينكشف له نظام الطبيعة الباطني و معناها، ونهاية المطاف يصبح الإنسان ملكا لكل ماهو إلهي في الأشياء وهذه الخبرة هي لأساس كل إبداع دينيا كان أو أسطوريا أو فنيا" ² فتصبح الأسطورة الإدراك الحدسي للطبيعة، لأشكالها العظمى و قواها " ³ أو هي بالتغيير الشلخي " فلسفة كشف تبحث عن الحقيقة وراء حدود العقل في التجربة الدينية ".
 لاشك أن الأسطورة من حيث هي فلسفة كشف يصبح عن طريقها الكون معروفا لدى الإنسان، هي أشبه بالنبوءة عند الإغريق، إذ أنهما تنتميان إلى مجال واحد من الاهتمام الروحي الشعبي، يدفع الإنسان إلى طلب المعرفة، و إلى الإجابة الفاصلة عما يجهله، و الفرق بين النبوءة و الأسطورة تختص بالظواهر الكونية " ⁴.

1- بشير زهدي مرجع سابق - ص 24.

2- مليسيا إلياذ - الأسطورة في القرنين التاسع عشر و العشرين دار الطليعة للطباعة و النشر ط 3- 1986- ص 40.

3- Ernest Cassier : Langage et Mythe, paris 16, 1992, P12.

4- نبيلة إبراهيم مرجع سابق - ص 20.

إن الطبيعة الكشفية للأسطورة جعلت شليغل يوازيها بالشعر إذ يرى أن " الأسطورة و الشعر شيء واحد لا انفصال بينهما " ¹ يولفان حقيقة حدسية من نوع خاص. إن العلاقة بين الشعر و الأسطورة يمكن أن يجاب عنها في شكل يقارب بين طبيعة كل منهما هذه « الطبيعة التي تعاني الواقع معاناة شعورية تلتحم و تمتد عبر الزمان في تاريخ إيجائي مفتوح، وهي أداة للتجسيد الرمزي المكثف الغامض الذي يمتلك يقينه في ذاته و يقوم على رؤيا كشفية " ²

البيئة الاجتماعية تتكون إذن من البيئة الأساسية المادية التي شيدها الإنسان، ومن النظم الاجتماعية ومن المؤسسات التي أقامها فهي الطريقة التي نظمت بها المجتمعات البشرية حياتها والتي غيرت البيئة الطبيعية لخدمة حاجات الإنسان. ³

وعلى هذا فالبيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية شيئان مشتركان و متفاعلان لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر و إن كانت البيئة الاجتماعية تؤثر في البيئة الطبيعية و تجعلها تتكيف و تتفاعل معها حسب الظروف و المقتضيات.

ان عامل الطقس يؤثر في مزاج الإنسان التارقي وفي طريقة تفكيره فمعروف أن الحرارة تؤثر بطريقة مباشرة أو غير مباشرة على الحياة ، و أن المحيط الجغرافي و الطبيعي من مناخ و موقع و غيرهما له تأثير فعال في حياة الأفراد و من ثم في حياة الجماعة و الظواهر التي تخلفها هي نتيجة لنشاط الأفراد الذين يكونون المجتمع ، و أن الظواهر الطبيعية و الاجتماعية متفاعلة مع بعضها ولا يمكن فصل إحدهما عن الأخرى لأن

1- ابراهيم رماني - الغموض في الشعر العربي الحديث - ديوان المطبوعات الجامعية - ص 288.

2- المرجع نفسه - ص 288.

3- محمد صابريني، البيئة ومشكلاتها، نشر عالم المعرفة، ط2. 1984 ص 27.

كلا منهما تؤثر في الأخرى و تشترك معها في إيجاد أسلوب خاص بالحياة و بناء على ذلك فان البيئة الطبيعية هي أساس بناء المجتمع وتكوينه و لذلك نجد التجمعات البشرية تختلف من مكان إلى آخر في تبيتها و نشاطها و ذلك لاختلاف طقسها و بيئتها لذلك لا يمكن أن نفصل بين البيئة الطبيعية و البيئة الاجتماعية لأنهما متشابكتان و تؤثر كل منهما في الأخرى، بحيث أي قبيلة تعرف بأنسابها ومواطنها ومياهها وشعائرها وحكامها، فالنمط البيئي أقوى من النمط الإرادي للتطور الاجتماعي.¹

فهناك عدة نظريات و آراء تتحدث حول اثر البيئة على حياة البشر كالنظرية الحتمية² وآراء تويني³ و منتسكيو⁴ و اختص ابن خلدون في تفسير علاقة الإنسان ببيئته عن أثر المناخ في طبائع الشعوب و تأثير الهواء على ألوان البشر، و ضرب مثلا على ذلك بشعوب السودان و الذي وصفهم بالخفة و الطيش و كثرة الطرب و السبب في ذلك الحرارة التي تجعلهم أسرع فرحا و سرورا و أكثر انبساطا.

صحيح أن البيئة تعد إحدى العوامل الهامة التي تؤثر على الإنسان لكنها ليست العامل الوحيد أو المنفرد فهناك العديد منها و ليس من المنطقي أن نقر بحتمية أي عامل من العوامل التي يخضع لها الإنسان في حياته سواء أكانت عوامل اجتماعية، تاريخية، حتى بيئية بمفهومها الأعم و الأشمل.

1- محمد صابري، البيئة ومشكلاتها مرجع سابق ص 67

2- نظرية الحتمية البيئية : يقر أصحاب هذه النظرية أن الإنسان يخضع بكل ما فيه للبيئة فهي التي تسيطر عليه و ليس العكس.

3- ارنولد تويني: يتصور تويني أن الحضارات تقوم نتيجة التحدي و الاستجابة وعلى قدر مواجهة الإنسان للظروف الصعبة

تكون عجز عن التغلب هذه المصاعب.

4- مولتسكيو : تحدث مولتسكيو في الكتاب " روح القانون " عن أثر المناخ و التربة في حياة الإنسان

و أقر ابن خلدون بأن العوامل الجغرافية تعمل عملها في التأثير على الحياة الإنسانية و عمراتها، و يرى أن المناطق المعتدلة هي التي تكثر فيها التجمعات البشرية والمناطق المفرطة في الحرارة و البرودة يقل سكانها ولا يوجد فيها عمران و لذلك نجد سكانها مختلفين في جميع الميادين و هم أقرب في حياتهم إلى الحيوانات منها إلى حياة التمدن¹.

2- طبيعة البيئة الصحراوية :

إن جميع الكائنات الحية لها ارتباط وثيق بالبيئة الطبيعية بما في ذلك النباتات التي تؤثر فيها البيئة . و تتشكل طبيعة المجتمعات الصحراوية وفق للموارد الطبيعية المتاحة لها و تسوء في هذا المجتمع طبيعة البدو الرحل و شبه الرحل كما يعيش هذا المجتمع حياة قبلية، و تملئ طبيعة البيئة الصحراوية على السكان فيها طباعا و عادات تتلاءم مع هذه البيئة تتمثل في:

*** البداوة:**

نشأت ظاهرة البداوة في مجتمع التوارق نتيجة للظروف البيئية والطبيعية وتتميز القبائل البدوية عامة بعدم الاستقرار في مكان واحد بصورة دائمة و تتدخل في أعماق الصحراء في فصول الأمطار و تقترب من الآبار و موارد المياه في فصل الجفاف.

و البداوة لون مميز من الحياة الاجتماعية وهي تلك الحياة التي تقوم بها المجموعات بمرافقة قطيعها أثناء تنقلها أو غط الحياة القائم على التنقل الدائم للإنسان في طلب الرزق ، و الطابع الذي يميز اقتصاد البدو هو نشاط يلبي الحاجات و ضعف الموارد على المستوى الاقتصادي يفسر العلاقة الموجودة بين الإنسان و الطبيعة .

1 عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، دار النشر للكتاب الدولي 2001-ص 111

تختلف القبائل البدوية التي تتواجد ضمن مجتمع التوارق في أسلوب حياتها عن النمط العام للقبائل البدوية حيث يوجد نمطان من القبائل البدوية.¹

أ- البدو الرحل:

و هم التوارق الرحل الذين ينتقلون من موضع إلى آخر طول العام وهم الامراد (IMRAD) الرعاة الكبار للأغنام و الجمال .

ب- البدو الشبه الرحل:

وهي تتأرجح بين البداوة و الاستقرار و تشكل الغالبية بعدد أفرادها و تعتبر قبيلة اسقمران وقبيلة كل غلا نموذجان لهذا النمط . هذه الظروف البيئية أثرت في عملية تنظيم الجماعات القروية و التنظيم الاجتماعي و توضح التأثير المتبادل بين الإنسان والبيئة التي يعيش فيها .

فمن خلال هذا المبدأ الأركيولوجي ذو الأهمية السوسيو- انثربولوجية يمكننا معرفة الظاهرة التركيبية التي شكلت الأسطورة لدى مجتمع التوارق و معرفة مختلف التطورات والتغيرات التي مر بها هذا المجتمع و العلاقة الرمزية ما بين المجتمع و التاريخ المبنية على الارتباط المستمر و الكلي بالمجتمع بجميع خصوصيات و آليات ذلك النموذج من النظام الاجتماعي العام.

1- قورين جلول، الصحراء الجزائرية، ديوان المطبوعات الجامعية 1993 ص 52

الفصل الأول

الأسطورة والحياة الاجتماعية والاقتصادية لقبائل الأهقار

أولاً: الأسطورة والحياة الاجتماعية:

1- أسطورة تين-هنان:

2- التنظيم الاجتماعي:

3- طريقة الزواج عند توارق الأهقار:

ثانياً: الحياة الاقتصادية لتوارق الأهقار

1- الوصف الإيكولوجي لمنطقة الأهقار :

2- الدورة الإيكولوجية:

3- تقسيم العمل:

الفصل الأول: الأسطورة والحياة الاجتماعية والاقتصادية لقبائل الأهقار

أولا : الأسطورة والحياة الاجتماعية:

إن مجتمع التوارق يخضع لنظام خاص يميزه عن باقي المناطق الأخرى في الجزائر فهو مجتمع متماسك رغم التغير الذي شهدته معظم مناطق البلاد.

الحياة في المجتمع تنظم مصالح الأفراد و توجه سلوكهم بعضهم تجاه البعض و محاولة تصنيفهم إلى جماعات من أجل العمل المشترك و بذلك نستطيع أن نرى في العلاقات التي تقوم بينهم نوعا من التخطيط أو النسق فيمكن أن نسميها البنية الاجتماعية ومن هنا جاء في بعض تفسير الأسطورة، أنها تستند بدرجة كبيرة على الواقع الملموس فكان اليقيني " بأن الآلهة هم في الأصل فئة من الملوك، بلغوا من القوة و التأثير جعل الناس ترتفع بهم فوق حدود الواقع إلى عالم الخارقة ثم توّطهم"¹ عرف هذا الاتجاه باسم اليوهيميروسية اليوناني و التي ترى في الأساطير " قصصا Euhemerus نسبة إلى يوهيميروس تروي بعض الأحداث العامة في حياة الشعب الذي أبدعها، بعد إدخال التعديلات عليها و صياغتها في قالب قصصي مشوق "²

يترجم هذا الموقف أن الأسطورة على الرغم مما تحتويه من عنصر الخرافة، تصبح في مجمل الموقف الذي تفرضه و من خلال شخصيات تنوء بمحمل هذا الموقف، أكثر فعالية في الكشف عن الوضع الإنساني في مرحلة من المراحل " إنها تعكس أعمالا وأفكارا و مؤسسات كانت حقيقية في وقت ما من الماضي "³

1- أحمد أبو زيد - الرمز و الأسطورة و البناء الاجتماعي - علم الفكر ع 3 - ص 20 - 19.

2- أندري لانج - عن ميريسيا إلياد - مرجع سابق ص 42.

3- أحمد كمال زكي - الأساطير دراسة حضارية مقارنة بيروت 1979 ص 123.

1- أسطورة تين-هنان :

فوق تل وادي أباليسه ، وعلى بعد 80 كلم من تمراست ، في الزاوية الجنوبية الغربية لكودية الأهقار و على ارتفاع 914 م توجد بناية من الحجر الجاف هي ضريح ملكي يطلق عليه سكان منطقة التوارق اسم " قبر تين هينان " وتين هينان عند التوارق شخصية تاريخية إذ تعتبر السلف الأمومي لكل القبائل النبيلة و الملكة الأولى لمملكة التوارق . وحفظت الأسطورة بأمانة في عادات التوارق . و أكثرها شهرة تروي أن "تين هينان" كانت مسلمة تركت التافيلالت ، وهي منطقة في جنوب الأطلس المغربي أين ولدت متجهة نحو الأهقار .

"عندما جاءت تين هينان من التافيلالت إلى الأهقار مصحوبة بخادمتها الأمانة تاكامات و مجموعة من العبيد ، كانت ممتطية ناقة بيضاء، أخذت من بلاد البرابر بكمية من الثمار و الدرر البيضاء إلا أن الطريق إلى الأهقار طويل بحيث مرت الأيام و لم تظهر نقطة الوصول، فبدأ الطعام ينقص و اشتد الجوع حتى أصبحت حياة القافلة مهددة ، وفجأة توقفت القافلة ورفعت الملكة عينها الى السماء ودعت ربها النجاة وبعد لحظة شاهدت الملكة كميات صغيرة من الحبوب التي اخترتها النمل بكل عناء و شقاء فطلبت من الخادمة تاكامات "بمساعدة العبيد بجمع هذه الحبوب و قدمت ما التقطته إلى سيدتها التي لم تتزل من على ظهر ناقته كما يليق بمكانتها ، وما التقطوه سمح للمجموعة متابعة الطريق و الوصول إلى الأهقار بأمان " ¹.

1- عن رئيس المجلس الشعبي البلدي بتمراست فهو شيخ قبيلة كل طايطوك وهو من أحد القبائل النبيلة بالأهقار

يتكلم أهل المنطقة عن الملكة أنها كانت حكيمة وقائدة بارزة حيث شيدت مملكة كبيرة مزدهرة وكانت مناطق واسعة من الصحراء الكبرى أراض خصبة تتخللها جداول وأودية يتدفق منها الماء على مدار السنة ، وتدل على ذلك النقوش الموجودة على الصخور وداخل الكهوف.

إن الأساطير التي تحكي تاريخ المرأة لا تخبرنا عن تفاصيل كثيرة في حياتها خاصة تلك المتعلقة بنسبها الأول وأسباب هجرتها من موطنها. الأمر الذي يضعها في مصدر الفرضيات الأكثر غرابة وترسخ في ذهن التوارق .¹

يروى التوارق عن ملكتهم أنها كانت رائعة الجمال ذات ذكاء خارق ويكون حيث استغلت جمالها لتسيطر به سياسيا على منطقة مزدهرة وقتها وحكمت عددا كبيرا من القبائل تسمى " الأمازاد"² وهي التي تنحدر منها جميع قبائل التوارق الحالية في بلدان الصحراء الكبرى الأفريقية تتوزع حاليا بين الجزائر وليبيا وموريتانيا والنيجر و مالي وتشاد .

فالواقع في الأسطورة حسب أحمد كمال زكي " قد يبدو خارقا، إلا أنه يظل شيئا قام حقيقة، و يظل في الوقت نفسه يحكي تاريخا مقدسا، ويصور مواقع تضرب في العصور الخرافية معانقة لها أو كائنا أو مفكرا حاول أن يفسر ظواهر الطبيعية و يضع أوليات المعرفة "³.

فالأسطورة تمثل الذاكرة الإنسانية عندما ترجع بنا إلى الماضي البعيد إلى مرحلة زمنية خارقة في كنف الغموض. مما دفع الخيال إلى مثل ذلك التصوير الخارق في تلك العصور.

1- محمد بلغول، القوافل الصحراوية الجزائرية - دار الكتاب العربي 2003-ص61

2- الأمازاد: آلة موسيقية وأيضا تعني مجموعة القبائل .

3- ميرييسيا إلياد - الحنين إلى الأصول بيروت - ص 107.

للواقع إذن حضوره في الأسطورة تمكن الواحد منا اكتشاف بنيته فضلا عن البنية التي تحكم صيغة كينونته الخاصة.

فالتوارق يتشرون في معظم الصحراء , ينقسمون إلى تجمعات يمكن حصره فيما يلي: انظر شكل رقم 3.

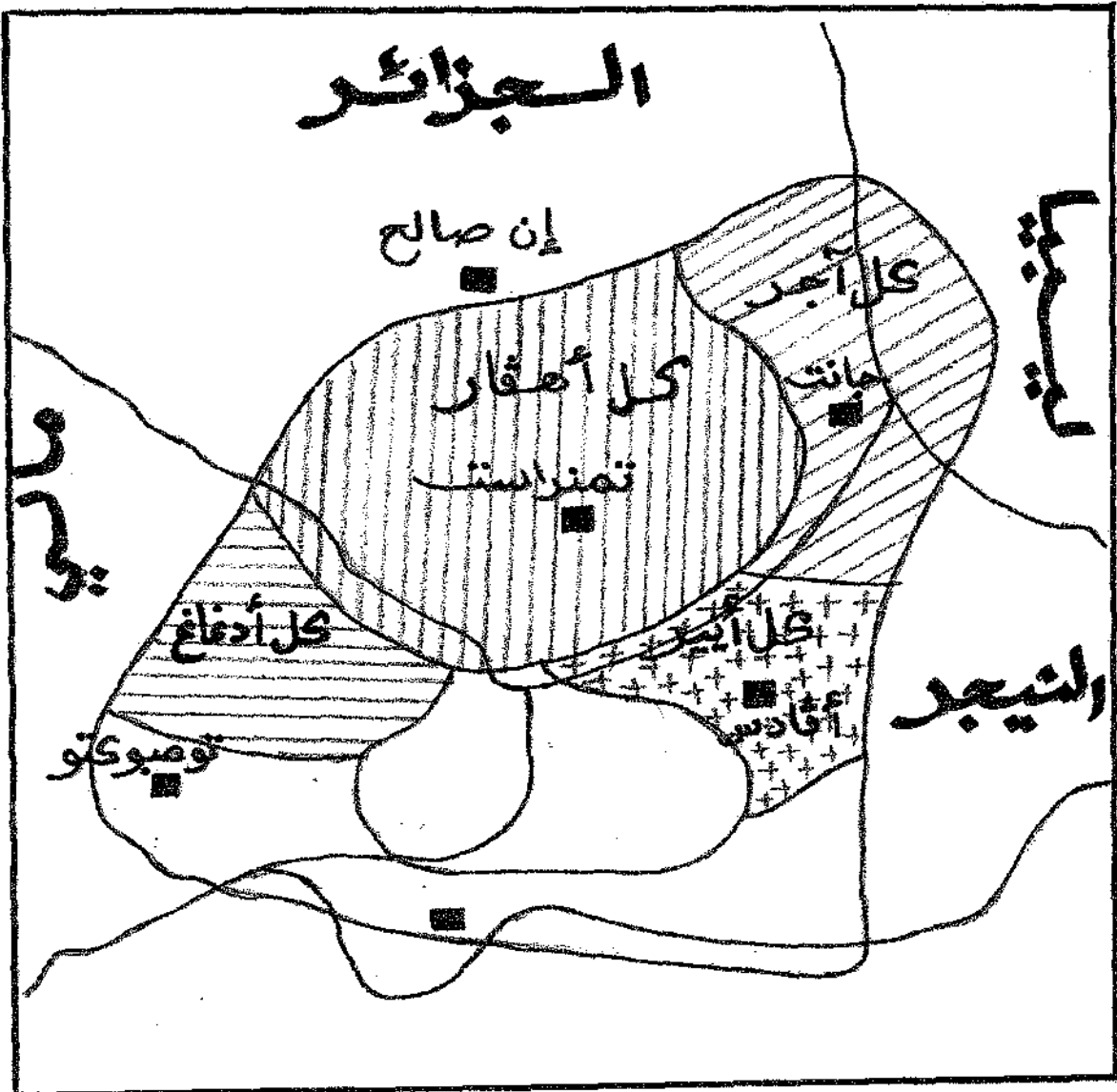
– توارق الآجير (Les Kel-Ajjer) بالتاسيلي ناجير أي بجانت بالجزائر و مدينة غات في ليبيا.

– توارق كل آير (Les Kel-Air) بجبال الآير في النيجر.

– توارق كل أدغاغ (Les Kel-Adghagh) بالأدغاغ الايفوغاس بجمهورية

مالي.

– توارق كل آهقار (Les Kel-Ahaggar) الأهقار في الجزائر موضع دراستنا.



شكل رقم 3

التوزيع القبلي لمختلف قبائل التوارق
مستخرج من سجلات بلدية تمنراست

1-1 نسب التوارق :

ليس من غرضنا هنا تتبع و لا استقصاء ما سيقال عن أصل هذه القبائل و ما سيذكر عن مرجع جذره هل هو عربي أو بربري أم غير ذلك ولكن سنعرض بعض الآراء حول نسب هذه القبائل كقول ابن خلدون:

" هذه الطبقة من صنهاجة هم المثلثون المواطنون بالفقر وراء الرمال الصحراوية بالجنوب أبعثوا في المجالات هناك منذ دهور قبل الفتح لا يعرف أولها فأصحروا عن الأرياف و وجدوا بها المرار وهجروا التلول وجفوها و اعتاضوا عنها بالبان الأنعام ولحومها انتبأذا عن العمران و استأنسا بالانفراد و توحشا بالعز عن الغلبة

و القهر فتولوا ريف الحبشة جوارا و صاروا ما بين بلاد البربر و بلاد السودان حجزا

و اتخذوا اللثام خطاما تميزوا بشعاره بين الأمم ، و عفو في تلك البلاد و كثروا

و تعددت قبائلهم من كذالة ، لمتونة ، فمسوفة ، فوتريكة ، فناوكا ، فزغاوة ، ثم لمطة أخوة صنهاجة كلهم ما بين البحر المحيط بالمغرب إلى غدامس من قبيلة طرابلس و برقة .. " ¹

و بيدوا لنا من فحوى كلام ابن خلدون هذا أن نزول هؤلاء المثلثون بهذه المغازات الصحراوية الجنوبية إنما كان بدافع الفرار من العدو المهاجم في الشمال و خوفا من الهزيمة على أيدي هؤلاء الزاحفين من الأجانب على الساحل الشمالي من إفريقيا .

يقول ابن خلدون نفسه في المصدر نفسه عن صنهاجة :

"... و لا خلاف بين نسابة العرب أن شعوب البربر الذين قدمنا ذكرهم من البربر

إلا صنهاجة و كتامة فان بين نسابة العرب خلافا و المشهور أنهم من اليمنية و أن افر يقش لما غزا افريقية أنزلهم بها ².

1- عبد الرحمن ابن خلدون المقدمة - دار الكتاب اللبناني - م السادس - ص 370 - 371.

2- نفس المرجع ص 372.

فهم منحدر ون من سلالة الجذر المازيغي المغربي الذي سكن أسلافه هذا الوطن الممتد من صحراء ليبيا إلى المحيط الأطلسي و من البحر الأبيض المتوسط إلى حوض السنغال و النيجر فهم الذين عرفوا باسم البربر و اشتهروا به في التاريخ .¹

و من أهم القبائل و البطون المنحدرة من الجذر الصنهاجي قبيلة لمتونه في الشمال وأقدالة في الجنوب بالقرب من نهر السنغال ، و مسوفة في الوسط ، هؤلاء هم المثلثون و يقول الدراجي و " بني لمتونة ضواعن رحالة الصحراء مراحلهم فيه مسيرة شهرين "².

و لمتونة هي من كبريات قبائل المثلثون بالصحراء الكبرى و هم الذين يسميهم الكتاب الأوروبيون : الرعاة الكبار أو الجمالين ، الرحالة الكبار و من بين القبائل التي عمها الإسلام في تلك المنطقة الصحراوية قبيلة تاركة أو (تريجة) .³

2-1 موطنهم :

ينتشر الطوارق "التوارق" في الصحراء الكبرى ما بين حدود جمهورية مالي الشمالية الغربية مع موريتانيا إلى حدود السودان مرورا بشمال مالي و شمال النيجر و شمال التشاد و جنوب غربي ليبيا و نستطيع القول وسط الصحراء الكبرى من مدينة غدامس و درج في ليبيا إلى تمنغست بالجزائر و جانت و تيمياوين و برج باج المختار إلى تينبكتو بمالي و إلى قاوة بنيجر و قبائل الطوارق تنقسم إلى ثلاثة فروع أساسية طوارق تاسيلي ناجر ، و أدرار نيفوغاس و هي موزعة على هذا الترتيب من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي و ما يهمنا نحن هم الطوارق الأهمجار .⁴

1- بوزياني الدراجي-القبائل الأمازيغية-الكتاب العربي 2000 ص 55

2- المرجع نفسه ص 57

3- سعدان الزيتوني ، أمازيغ شمال إفريقيا-دار الهدى، ط 1999، ص 83

4- عبد الرحمان الجيلالي -تاريخ الجزائر العام -ج 1. ط 3 الجزائر 1971

فيقول محمد السويدي نقلا عن ابن بطوطة: " وصلنا بلاد الهقار وهم طائفة من البربر المثلثون وكان وصولنا إلى بلادهم شهر رمضان....وسرنا في بلاد الهقار شهرا وهي قليلة النبات كثيرة الحجارة طريقها وعر"¹

3-1 تسميتهم :

لقبوا التوارق بهذا الاسم (التوارك) لأنهم تركوا طريق الهداية و قيل العكس أنهم تركوا الوثنية إلى الإسلام و ذلك عند أول عهدهم بالإسلام.²

و سماوا بالطوارق نسبة إلى طروقهم الصحراء و توغلهم فيها.³

وربما التسمية نابعة من اشتقاق الفعل العربي طرق الذي من بين معانيه ما أورده ابن منظور إذ يقول: "...فكل آت بالليل طارق" وقيل أصل الطروق من الطرق وهي للدق وسمي الآتي بالليل طارقا لحاجته إلى دق الباب وفي حديث " علي " كرم الله وجهه " إنها حارقة طارقة أي طرقت بخير وجمع الطارقة طوارق وفي حديث آخر " أعوذ بك من طوارق الليل إلا طارقا يطرق بخير"⁴

و منهم قائل أن سبب التسمية هو انتسابهم إلى طارق ابن زياد و تأتي التسمية انتسابا إلى قبيلة (تاركة و الاسم الأخير هذا التوارك هو الذي حرفه بعض تراجم المشرق فقالوا (الطوارق)⁵ و هم القبائل المثلثون الساكنون ببلادهم التي سماها لنا ابن خلدون (هكارة) وهي المعروفة اليوم باسم الهكار. "⁵

1-محمد السويدي بدو الطوارق بين الثبات و التغيير دراسة سوسيو-انثروبولوجية المؤسسة الوطنية للكتاب 1989 ص 44

2-نكروف عبد الخالق- الرحالة العرب دار الطليعة بيروت 1977 ص 72

3-المرجع نفسه ص 73

4-ابن منظور، لسان العرب، دار صادر بيروت، مج 10، ص 217

5- عبد الرحمان الجيلالي حرف القاف المفقودة-مجلة الشهاب-1931-ص 446

و يقول بوشارب نقلا عن ابن خلدون في أصل هذه الكلمة إنها منقلبة عن (هوارة)¹ و حسب رأينا يمكن إرجاع اشتقاق هذه الكلمة (الهقار) إلى أصل المادة نفسها وهو الهجرة بمعناها المعروف و هو التنقل و الترحل و الخروج من مكان إلى مكان آخر وحيث نضطر إلى اعتقاد القول بأنهم من المهاجرين الأولين الذين استوطنوا هذه المنطقة فسميت بلدهم هذه ببلد (الهجار) . "...و كان الطوارق يعرفون من بين هذه القبائل في العصور الوسطى باسم (اسجلماسن) ولما إنتشر الإسلام و اللغة العربية ترجمت هذه الكلمة بمقابلها بالعربية (المثلثون) فأصبحت مصطلحا يطلق على قبائل البربر في الصحراء الكبرى وذلك للزومهم عادة التلثيم ووضع العمائم على رؤوسهم...".²

أما تسمية الهقار أو الأهقار يمكن أن ترجع إلى ذلك الحبل الذي يشد به رسغ الجمل والذي يسمى باللغة العربية " الهجار " بكسر الهاء³، حتى لا يسري في الليل ، فإذا قلنا الجمل قلنا الصحراء وإذا قلنا الصحراء قلنا الجمل . ويحتمل أن لفظ " الهجار " جاء من كلمة المهاجرة والهجير أي شدة الحر حيث تفوق درجة الحرارة 50 درجة صيفا في المنطقة .

ويروى انه كان لتن -هنان ولد فسمته هقار ومن هنا اتخذت للمنطق اسما لها وكان اسم النبلاء عليهم بأهل الهقار .ويطلق أيضا على المادة الحمراء المستخرجة من الجبال التي يستغلها الحرفيين في الدباغة أو الطلاء بالأهقار و حسب رأينا انه يرجع تسمية المنطقة بهذا الاسم إلى قاطع الحجارة في العصر الحجري القديم ويسمى بالحجار وقلبت الحاء إلى الهاء .

1-عبدا لسلام بوشارب-الهقار اجماد واتحاد-المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع-ص16

2-محمد فارس العياض -الطوارق شعب الصحراء الكبرى دار الطليعة للنشر 1979 ص 6.

3-عبدالرحمان الجليلي،مجلة الشهاب مرجع سابق 450

4-1 لغتهم :

أما لغة القبيل هذه فهي المعروفة ما بين لهجات البربر بلغة (تماشغت أو تمازغت أو طماشق) ، وترجع في اشتقاقها وتركيبها إلى اللغة الحامية القديمة التي تمت بصلة إلى اللغة السامية و بحيث التاريخ يشهد على انتشار اللغات السامية من شبه الجزيرة العربية إلى بلاد ما بين النهرين و ارض كنعان و سوريا و الحبشة ومنها إلى شمال أفريقيا كما يشهد على أن اللغات و اللهجات خلقت بفعل العوامل المختلفة كالاختلاط و التأثيرات و الإضافات المتنوعة و ما البربرية سوى لهجة متفرعة عن اللغة العربية الأم بسبب العوامل التي ذكرناها¹.

وحروف هذه اللهجة تسمى (التايفيناغ) و أشكال هذه الحروف متشابهة في الصورة. ولهذا الخط ضوابط يسمونها (تيد باكين) و الكل يسمى (أقامك) ويمكن كتابة هذا الخط من اليمين إلى اليسار و من اليسار إلى اليمين و من أعلى إلى أسفل و من أسفل إلى أعلى , و من المؤرخين اللغويين من يرد البربرية إلى أصول فينيقية مثل غوستاف لوبون الذي يقول :

"إن لغة البربر العريقة في القدم يحتمل أن تكون مشتقة من الفينيقية"².

فالرأي السائد لدى الكثير من الباحثين أن الأبجدية التي يسميها التوارق

(التيفيناغ) استعاروها من الأبجدية الفينيقية .

و تحتوي هذه الأبجدية على اثنين و عشرين حرفا و تضع بعض قبائل التوارق حرف (+) على رقاب الإبل كتسمية لها و هي الحرف الأول من كلمة التوارق أو (تماشق) و لا يأخذ شكل الصليب كما اعتقده الكثيرون من كتاب الغرب لأنهم كانوا قبل الإسلام نصارى و حروف التيفيناغ لا يتقنها كل التوارق بل تتقنها النساء والخدم و بعض الذين تعلموها من النساء.

1- د احمد بسوسة - حضارة العرب وتطورها - دار الأحياء المكتبة العربية-46

2- قوستاف لوبون، حضارة العرب ترجمة عادل زعير ط2 مطبعة القاهرة. 1956 ص 103

اللهجة البربرية هي لهجة متفرعة عن العربية الأم وهذا ما قاله أحمد سوسة وهي تحتوي على نسبة كبيرة من حروف اللغة الفينيقية¹. فمثلا حرف القاف ق يقرأ عند التوارق g مثل تقزي أي المحافظة، ومثلا حرف الجيم ج تقرأ عند التوارق dj مثل تاجوهي أي الشهادة. وحسب مبارك الملي خط التيفيناغ يتكون من عشرة حروف وخمسة أشكال يسمونها تيدباكين وهي من وضع البشر²

1- د أحمد سوسة -مرجع سابق ص 47

2- مبارك الملي ،تاريخ الجزائر في القديم والحديث،م،و،ك ج 2،ص 216

2- التنظيم الاجتماعي:

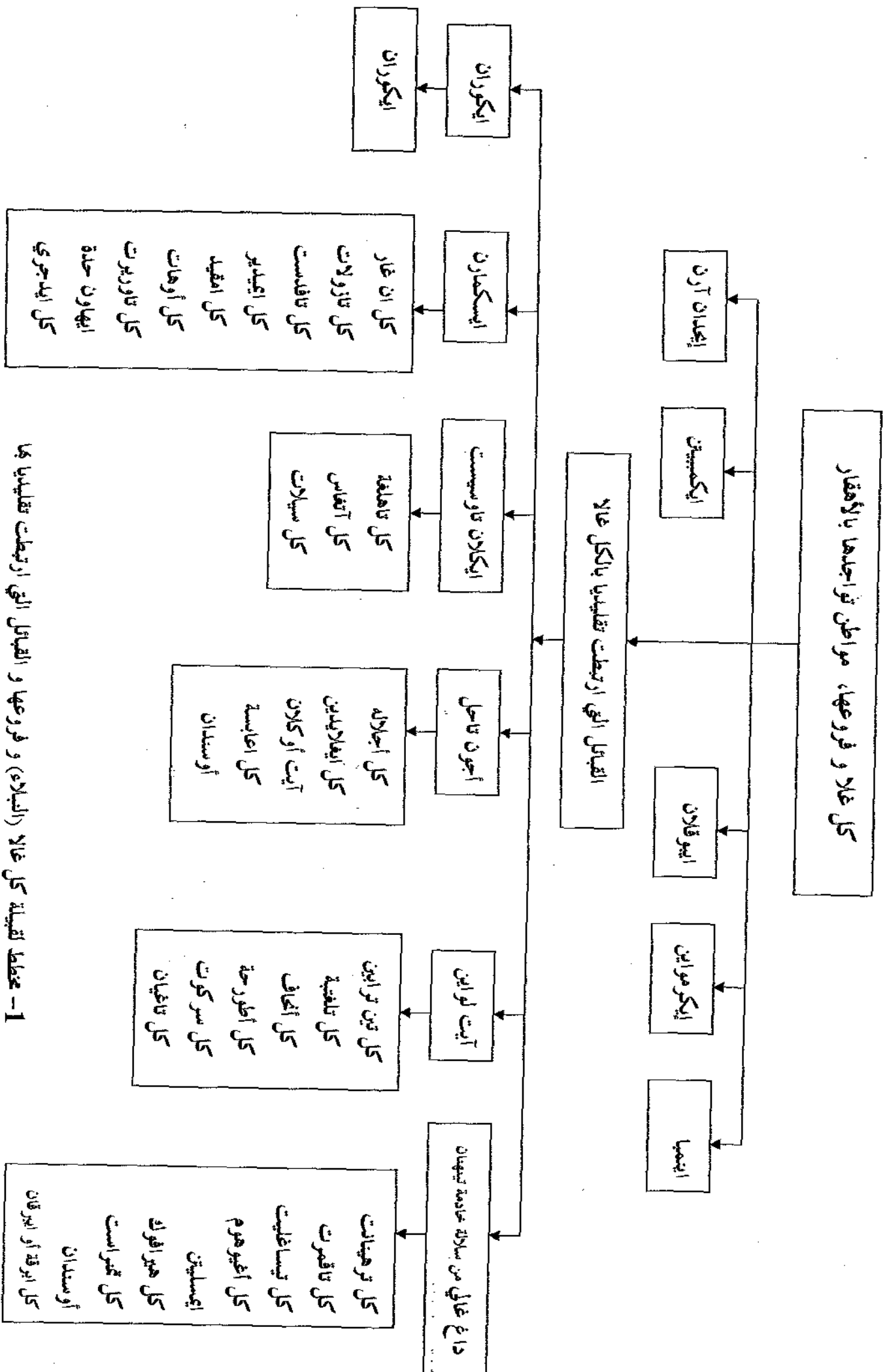
التركيبة الاجتماعية للأهقار هي عبارة عن هرم مشكلة من ثلاثة أقسام أو طبقات ففي أعلى السلم الاجتماعي نجد طبقة الأهقارن (وهي الحاكمة سياسيا، تتكون من ثلاثة قبائل نبيلة كل واحدة لها منطقة جغرافية¹.

- قبيلة كل غلة (les kel - ghela) تسيطر على أكبر منطقة بالأهقار
- قبيلة طايطوق (les taitoq) أتباعها يترحلون في منطقة أهنت (l'ahnet) إلى غاية حدود أدغاغ (l'adghagh) المالي .
- قبيلة تجيه ملت (les tèdjèhè melet) وهم الاقلية ويتمركزون في الجهة الشرقية للأهقار في التافديست. وعند وصول القافلة للأهقار تزوجت " تين هينان " و " تاكامات " و استقرتا في أباليسه . و يقال أن تين هينان أنجبت بنتا و انحدر منها " الكل غلا " النبلاء ، أما تاكامات فأنجبت بنتين انحدر منها الداق غالي و أيت لوين و تفرعت القبيلتين النبيلتين كما يوضحه مخطط 1 و مخطط 2 .

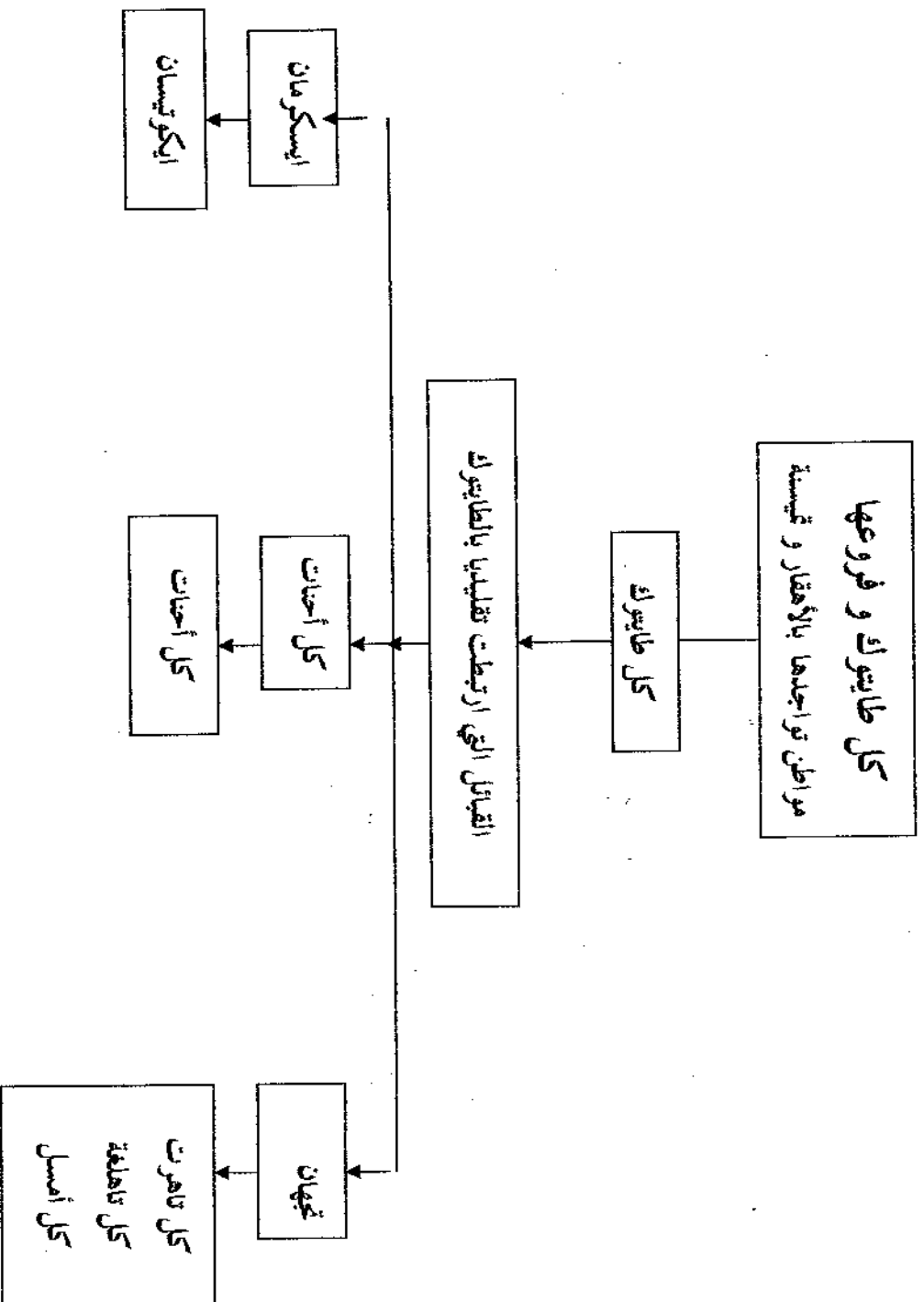
و حسب أساطير أخرى تقول أن لتين هينان بنتين تحمل كل واحدة منهن اسم طوطمي : تاكاتوت أي الغزال سلف الكل غلا ، و تامروالت سلف الايوغلان . جاءت في رواية أخرى لكن قليلة الانتشار أن القبر المعروف بقبر تين هينان هو حصن قديم أو قصبة بناها حاكم " رومي " بيزنطي يحمل اسم جالوتا (JALOUTA) ، كان يسكن الأهقار . و عند قدوم المسلمين ترك جالوتا أباليسه متوجها نحو السوق في الإدرار لكن طرد منها و قتل عند عودته مرة أخرى إلى الأهقار . و بعد موته استقر جنوده في الأهقار و تزوجوا مع نساء المنطقة و يعرف خلفهم الحاليين باسم "الايماستين " ².

1- L'Hote (H), Les Touaregs, Du Hoggar, Payot, Paris 1955, P102

2- GABLF le nord africain-ed-paris v -1979 p111



1- معطاه لقبيلة كل غلا (البيلا) و فروعها و القبائل التي ارتبطت تقليديا بها مستخرج من أرشيف قسم حماية التراث الثقافي بديران حفيرة الأهقار الوطنية - تمراست -



2- مخطط لقيمة كل طابوك (النبلاء) و فروعها و القبائل التي ارتبطت تقليدياً بها
 مستخرج من أرشيف قسم حماية التراث الثقافي بديوان حضرة الأهفار الوطنية - قنر است -

من خلال اسطورة تين- هنان يتضح لنا أن المجتمع التارقي هو مجتمع أموسي. فالأهالي يحتفلون بهذا الحدث ويقيمون مراسم احتفالية و الكل يدفع كل سنة التويسة (أي الضرائب) إلى خلف (فتح الخاء) تين- هنان .
فالأساطير التي تتمحور حول المجتمع الأمومي وسلطة الأم في المجتمعات التقليدية على حد قول أبو الناصر المغربي، هي إنشاءات نظرية ذات طابعا يوتوبي وبأسلوب مزيدا من الشاعرية "1.

في المجتمع الأمومي، أسلم الرجل قياده للمرأة، لا لتفوقها الجسدي بل لتقدير أصيل وعميق لخصائصها الإنسانية وقواها الروحية وقدراتها الخالقة وإيقاع جسدها المتوافق مع إيقاع الطبيعة، إضافة على عجائب جسدها الذي بدأ للإنسان القدم مرتبنا بالقدرة الإلهية كانت بشفافية روحها أقدر على التوسط بين عالم البشر وعالم الآلهة، فكانت الكاهنة الأولى والعرافة والساحرة الأولى.²

و سكنت بعد ذلك " تين هينان " الحصن حيث دفنت به . تجاوزت سمعة "تين هنان " ،ملكة الأهقار حدود المنطقة وروي عنها حكايات عجيبة أشهرها قصة الاطلنتيد (L'atlantide) . حيث ألف ييار بونوا (pierre benoit) كتابه الاطلنتيد جاء فيه أن ضابطين فرنسيين سجنا عند ملكة أسطورية منحدره من الاطلنتيد وتعيش في قصر وسط الهوقار.³ ومن المؤكد أن أنتينا (antinea) ما هي إلا شخصية خيالية لدى المؤلف رغم اكتشاف ضريح تين هينان ستة سنوات من بعد.³

1- أبو ناصر المغربي - تاريخ الزواج - دار النشر تونس 1987 ص 74.

2- المرجع نفسه - ص 117.

3- L'Hote (H), Les Touaregs, Du Hoggar, opcit, P122.

- تين- هينان: من الناحية اللغوية اسم " تين هينان " هو كنية في لغة التامهاك . يطلق على الخيمة أي " إيهان " و في الجمع " إيهان " و كلمة " تين هينان " يمكن أن تكون " صاحب الغرف " اذا كان يعني الشخص المدفون في الضريح المبنى

1-2- القبائل:

إن الحياة الاجتماعية لدى توارق الأهقار تتكون من الأشكال المورفولوجية التي تحتوي على أنماط العلاقات، المبنية على النظم الاجتماعية، وأنماط السلوك الاجتماعي. نظام المجتمع التارقي، نظام اجتماعي قبلي عشائري والصفة الغالبة على السكان هي السمة البدوية الرعوية حيث يتكون المجتمع من جماعات ومجموعة قبائل تمارس رعي الحيوانات وتربية المواشي من إبل وغنم، وماعز لذلك فهي في تنقل مستمر وترحل دائم حسب فصول السنة وأماكن تواجد الأراضي الرعوية والماء و نمط الحياة السائد بسيطاً ويعتمد على منتجات الحيوانات هذه الأخيرة التي تعتبر الدخل الأساسي للقبائل، ونتج عن ذلك وجود علاقات إنتاجية أساسها استخراج اللحم واللبن والصوف والوبر وصناعة الجلد والخيام.

يقوم السكان بتبادل ومقايضة تلك المنتجات في أسواق توجد في بعض الدول المجاورة. واحدة في الخريف وواحدة في أواخر فصل الربيع، ويأخذون مقابل موادهم تلك مواد أخرى يحتاجونها مثل (القمح، التمور، الزيت، السكر، الشاي، القطن، الحرير، الملابس والأحذية والأفرشة)، أما العلاقة الاجتماعية فكانت قائمة على أساس دموي وقرابي حيث يربط بين أفراد القبيلة صلة دم، وينحدرون من جد واحد تحمل القبيلة اسمه وتنقسم القبيلة الواحدة إلى عروش وأفخاذ عديدة، كما أن الأسرة التي كانت سائدة هي العائلة المركبة أو الممتدة حيث يعيش فيها إلى جانب الوالدين الأبناء المتزوجين وغير المتزوجين والبنات غير المتزوجات بالإضافة إلى الجد والجدة والأحفاد، وتخضع العائلة لسلطة الأمغار¹، ويحظى كبار السن بمكانة خاصة في الأسرة، وقد تقوم ببعض الأحيان بين عدة عائلات أو قبائل، وأهم القبائل المشكلة لمجتمع التوارق هي:

1- الأمغار: تعني في لغة التوارق شيخ القبيلة

الاهقارون: IHAGGAREN

لهم طريقة حياة كريمة لكونهم الطبقة الحاكمة من جهة وبصفتهم كانوا محاربين ومربين الإبل , إلى جانب هذا كانوا يحصلون على أتوات من قبل القبائل التابعة لهم حيث عرفوا قديما بهجماتهم المتكررة على القبائل المجاورة التابعة لسلطان آخر بالواحات الصحراوية و القرى الإفريقية دول الساحل فكانت لهذه الهجمات أهمية كبيرة في المعادلة الاقتصادية وهذا ما زادهم جاها و مكانة.

المحاربين يظهرون وهنالك وسيلة اقتصادية أخرى تميزوا بها كان يعتمد عليها الاهقاران إضافة إلى تربية الإبل و الغزوات , تتمثل في القوافل التجارية , حيث كانوا يجوبون الصحاري شمالا و جنوبا (توات وتيديكلت) وذلك بمقايضة الماشية بالتمر و الشاي و السكر .

الامغاد: IMGHAD

هم أتباع الطبقة الأولى، و يعيشون في قبائل منتشرة ويلقبون بالرعاة الكبار وسمون بلغة التاماشاق بكل أولي أي اهل المعز.

اناضن: INADDEN

فيما يخص طبقة الاناضن كان التحاقهم بالأهقار بطلب من الأمينو كال من أجل تصنيع لوازم الحرب و الغزو من سيوف و خناجر و رماح من جهة و تحضير الآلات الفلاحية من مرحلة ثانية في عهد الأمينو كال أحمد بكري لما قام بنشر الفلاحة و ادخال التقنيات الجديدة في قرية ايدلس و تازروك .

فهم يطلق عليهم إسم (إناضن) **inadden** ومعناها ابن العصر القديم (ومفردها إيناضن) فهي التي تضع كل لوازم الحياة ويستخدمون في هذه الحرفة آلات بدائية ، فكل مجموعة من الحرافيين يتبعون قبيلة من قبائل التوارق فهم يشكلون عائلات وليس قبائل كمجتمع توارق وينسبون إليهم الذي يتشكل من عدد من القبائل .

ويقوم هؤلاء بخدمة أسيادهم في تركيب الخيم و ذبح الشاه وسلخها وتقطيع لحمها وهذا العمل لايقوم به إلا الحدادون

- الاكلان - العبيد :

هي بمثابة الخدم و اليد العاملة الضرورية لخدمة الطبقة النبيلة , فمنهم من كان يشتري من الأسواق الأفريقية أو ما تعرف بالسودان , وفي الشمال و بالضبط في مدينة عين صالح أو التديكلت و في الأهقار نفسه , و هناك من كان يخطف أو يسلب في الغزوات على القبائل المجاورة , و المعروف عند الطوارق أن هذه الطبقة مسخرة لخدمتهم و القيام بالأعمال المتربة و حراسة الماشية إلى جانب استخراج الملح و الأمدغوغ و مرافقة القوافل بين التوات و السودان.

وتضاف إليها الشرفة : أما الطبقة الخامسة الدخيلة على التركيبة الاجتماعية لطوارق الشمال هي طبقة الشرفة أو الطلبة ويمثلون السلطة المقدسة الذين كانوا قليلون في القرن التاسع عشر ، يقتصر دورهم في نشر تعاليم الدين الإسلامي و تحفيظ القرآن الكريم بين سكان القبيلة و كانوا ينشرون الدين الإسلامي وهم حاليا يدرسون في المساجد واخرييش. ويلقبون بالشرفة لأنهم من سلالة الرسول - صلعم - والشكل التالي يوضح التركيبة الاجتماعية للبنية الاجتماعية لمجتمع توارق الأهقار.

مخطط البنية الاجتماعية للتوارق الأهقار (الطبيل)

ملاحظات	المكانة الاجتماعية	النشاط
<p>نساء الليلاه - I-mouhar يعملن الصناعات التقليدية وكل ما يتعلق بالخبيزة و تربية الأطفال</p> <p>من توات / تيد يكات سكنوا المنطقة بعد 1850 و خاصة في سنة 1900</p>	<p>Amenokal Kel G'la Taitok Tediene mollot</p> <p>الأميركال كل غلا التايوك تاجيه مولات</p> <p>التابعين دعاة للسلام</p> <p>منحدرين من تواج بين سكان الأهقار و سجيناتهم . منحدرين من تواج بين الأمغاد و سجيناتهم .</p> <p>عبيد تحرروا وأصبحوا موالين حدادين (الخشب - الحديد) عبيد = الأعمال اليومية</p>	<p>المصاحب الآن لاضي قبائل إهقارن Ihaggaren Imghad Ineslmen</p> <p>بو هاليتان Ibohelliten Itadian Iderfan Inaddan Iklan</p> <p>السلطة السوسية الربية الإهل حروب ، قو اقل ، تجارة صناعة الجبن ، القضاء تربية الإهل الحروب مزارعين أعمال يومية</p>
<p>الرجال : صناعة الحديد و الخشب . النساء : الصناعات الحادية .</p>		

من خلال هذا العرض للبنية الاجتماعية لتوارق الأهقار نلاحظ التراتب والمكانة الاجتماعية بحيث هذا الترتيب أيضا عرفته المجتمعات القديمة ونذكر هنا على سبيل المثال المجتمع الجاهلي حيث ارتبط الفكر الأسطوري بالعبودية، و العصور الإسلامية كما يوضح ذلك الدكتور خليل أحمد خليل بقوله " كانت قريش تتجر بالرقيق مثل تجارها بسائر السلع و من أشهر الناحسين في الجاهلية عبد الله بن جدعان التيمي رئيس قريش في حرب الفجار. فإذا اشتري أحدهم عبداً وضع في عنقه حبلاً و قاده إلى منزله كما تقاد الدابة... و كانوا يتبعون الأرقاء و يتهادونهم و يتوارثونهم مثل سائر الأمم " وقد يخرجون العبيد في جملة صدقات العرائس. و ممن أخرج في الصداق بشار بن برد الشاعر الإسلامي الشهير، فإنه كان هو و أمه لرجل من الأزدي تزوج إمرة من بني عقيل فساق إليها بشاراً و أمه في صداقها".¹

فحيثما يسود الفكر أسطوري (وهو فكر اضطهادي عبودي بطبيعته) تسيطر العبودية الاجتماعية على الطبقة العاملة و الفقيرة. و لقد بلغ عدد العبيد مئات الألوف في المجتمع العربي ، و كان المضطهدون و المظلومون ولا يزالون يشكلون الأكثرية الساحقة و الصامة فيه. ان العبودية عند العرب أصناف : الأرقاء ، القنان ، الموالى . (و هم فئة متوسطة بين العبيد و الأحرار. فالمولى هو العبد المتوقع) .²

أما في الإسلام فقد تبلورت طبقة دينية حاكمة جديدة ، تضم فئة الصحابة (المهاجرين و الأنصار) و فئة القضاة و فئة أمراء الجند و فئة عمال النواحي. وتكاثر الاسترقاق بالاسر، إذ كان أهل البلد المفتوحة في وضع الأسرة من الناحية النظرية، إلا أن الخليفة عمر ابن الخطاب اعتبرهم ملكاً للدولة (إذن للطبقة الدينية) فأعتفهم و أصبحوا موالى لفئات الطبقة الحاكمة .²

1- د. خليل أحمد خليل- مضمون الأسطورة في الفكر العربي- دار الطليعة للطباعة والنشر- بيروت- 1986 ص 83

2- المرجع نفسه ص 83

والحق أن المسلمين الجدد عانوا اضطهادا طبقياً صريحاً ، إتخذ شكل صراع إيديولوجي و أسطوري ، بالرغم من كون بعضهم من طبقة التجارة و ذوي النفوذ .
فلاضطهاد المرير كان يطال الضعفاء و الفقراء منهم. مثال ذلك : كان أبو جهل إذا سمع بالرجل قد أسلم أنه و خزاه .. و أن كان تاجراً . إلا ان الفكر الأسطوري و الغيبي ضلّى متحكماً بسياسة الخلافات حيث كانت طبقة العبيد فئة الخدم ، فئة المماليك ، و فئة الغلمان فئة الجوّاري و السريات فئة الأقتان¹

2-2- البنية الاجتماعية السياسية للقبيلة.

إن مجتمع التوارق كان ولا يزال عبارة عن قبائل كثيرة الحركة عبر الشمال الإفريقي، اشتغالا بالتجارة ورعي المواشي.

العلاقات الاجتماعية القبلية فهي علاقات تسودها القرابة، و القرابة علاقة اجتماعية تقوم على التعاون و اللاعنف فصلة الرحم كما يقول تايلور " و يعبر اشتقاقهما من نفس الجذر أفضل تعبير عن المبادئ الأساسية للحياة الاجتماعية² .

قبل أن نسهب في دراسة بنية هذه القبائل لا بد من إعطاء تعريف لمفهوم القبيلة بصفة عامة. فيمكن أن نقر أنها شكل تنظيمي سياسي يقوم على أساس روابط العرق والتحالف، و يخضع لمجموعة من القوانين الاجتماعية في نشأته الأولى وآلياته التنظيمية والبنوية.

1- د. خليل أحمد خليل-مرجع سابق-ص38

2- أشلي مونتاغيو، ترجمة د. محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة الكويت ص 290

فمفهوم التقاليد إنما تعبير عن علاقة بالماضي و إستمراريتها ناتجة عن قانون معياري قانون المعنى أي القيم الموروثة التي تحتج التصرفات الفردية والجماعية فتتناقل من جيل لآخر إنما الموروث الذي يحدد ويضبط النظام "إن القبيلة هي أعلى مستوى في درجة القرابة، فإليها ينتمي أجزاء وفروع متعددة، فالقبيلة تنقسم عادة إلى وحدات يطلق على كل منها اسم "عشيرة"، وكل عشيرة تنقسم بدورها إلى وحدات أصغر في سلم القرابة، ويطلق على كل واحدة منها اسم "البطن" والذي يتجزأ بدوره إلى وحدات أخرى يدعى واحدها بـ "الفخذ"، وهذا الأخير ينقسم إلى مجموعات أصغر تسمى واحدها "الحمولة" وهي بدورها تنقسم أيضا إلى عائلات ممتدة.

يحقق التوارق من خلال شكل العصبية المبني على صلة النسب والرحم وحدة اجتماعية هذا الشعور الذي لديهم في جميع المناسبات والاحتفالات هذا السلوك المبني على التعاون المتبادل فإن وجد الفرد نفسه خارج هذا الفضاء يفقد قيمته ويصبح طرفا معزولا هذا الأسلوب الذي تغذيه تلك الممارسات الثقافية والتراكمات الأخلاقية والرمزية التي شكلت رأس مال ثقافي رمزي.¹

يقول محمد الخطيب نقلا عن العلامة أيفانز بريتشارد في هذا الشأن يصف قبيلة النوير في السودان : " إذا أردت أن تعيش بين أعضاء مجتمع النوير عليك أن تحترم النظم التي تسمح لك بذلك، و تنص تلك النظم على معاملتهم كأقارب لك و هم يعاملوك كأحد أقارب، و يترتب على تلك العلاقات القرابية حقوق وواجبات و مميزات. و في ذلك المجتمع يكون الفرد إما قريبا لجميع أفراده و إما غريبا و يعامل معاملة الأعداء".²

1- بوعناني إبراهيم الأسس النقدية للسلطة الجزائرية في الجزائر، دار الهدى ط 1999، ص 89

2- محمد الخطيب الأنثولوجيا دراسة عن المجتمعات البدائية، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة ط 2000، ص 82

إن داخل العائلة لا أحد يحتاج إلى قانون، العائلة هي مجال خاص ومكان اتجاه القانون يتوقف عند عتبة البيت والقوة العمومية لا تحتاج للتدخل كي تفرض النظام لتوزيع الخيرات".¹

فيقول مورغان (Morgan) ان العائلة هي العنصر النشط فلم تكن في يوم من الأيام ثابتة ، و لكنها تمر من شكل أدنى الى شكل أرقى .. و من جانب آخر ، فحينما تكون الأنظمة القريبة سلبية ، فإن العائلة تحقق التقدم لمدة طويلة من الزمن ، هته الأنظمة لا يطرأ عليها تغير جذري ما لم يطرأ على العائلة تغير جذري² من هنا كان الفكر الأسطوري القائم على اساس غيبي — لا عقلائي، له منطقته المختلف تماماً عن منطق الفكر الموضوعي. والأسطورة المكونة لهذا الفكر تنزع دائما إلى اضافة صفات قدسية غامضة على مواضيعها وأشياءها، وأشخاصها، ولا مشاحنة ان الأسطورة لها عمليا مستلزمات غيبية تستند إليها في الواقع، وتنعكس بواسطتها على المجتمع وعلى السلوك السياسي الطبقي فيه .

يجسد الفكر الأسطوري إرادة القوة بواسطة الإعلام القدسي او الدعاء المستجاب . و ممارسة الدعاء مفادها الرمز و التأكيد على ارتباط الإنسان بقوة غيبية. تحقق به ما يريد أو ما يحتاج إليه وهذا له بقادر على إنجازه بعمله وفكره ،و الدعاء جزء أساسي من سلوك الإنسان الأسطوري العاجز أمام قوة الطبيعية أو قوة الآخرين³. وهذا ما تجلّى في أسطورة تين هنان .

1- أحمد بدوي تاريخ الفكر السياسي والاجتماعي ،دار الكتاب اللبناني، ط2 1983، ص127

2-F.engls l'origine de la famille .paris ed.sociales 1971.p69

3- د.خليل أحمد خليل-مرجع سابق ص87

فالوسائل المتولدة من جراء الأسطورة أو المولدة لبعضها، تتحول في المجتمع إلى أدوات إضافية للسيطرة — ملكية طبقة محددة لوسائل الممارسة الأسطورية، اذا جاز التعبير والافتراض وهو تكريس للعبودية الاجتماعية التي تعتمد عليها الطبقات السياسية ضمانا لاستمرار سلطتها، فالفكر الاسطوري اذ يقدم للإنسان مثلاً عن ارادة القوة الغيبية، يضعه في نفس الوقت في وضع العبد المندھش، المرتعب من سلطان هذه القوة، التي يزعم المستبدون انهم يمثلونها أو ينطقون باسمها.

ومن هنا رافقت الأسطورة التوارق في تزحالمهم باعتبارها رمزاً مضيئاً وأصيلاً، وقد تعدد مستويات هذا الزمن من حيث الاضاءة والعتمة، لكنه يبقى على صلة قوية بصيرورة التاريخ وتشكل طبقاته الاجتماعية.

3-2- نظام الحكم:

كثيرا من الرموز التراثية قادرة على الاستمرار في نسق الواقع المعاصر، وتغييره بفعل بعدها التاريخي ودلالة هذا البعد على المستوى الإنساني والاجتماعي والسياسي هذا ما جسده أسطورة تين هنان وأصبح نظام الحكم على النحو التالي:

أ- الأمينوكال

الأمينوكال (أمين العقال) زعيم القبائل فهو شيخ أقوى قبيلة من القبائل فهو بمثابة الرئيس الأعلى للبلاد ويساعده مجموعة من tobol (الطيب) أو ettebi أي شيوخ مجموعة القبائل أي شيوخ القبائل (الأماغار) ويتولى الحكم من بعده ابن الأخت لأنه يجري في عروقه الدم النقي الواضح لسلالة الأمينوكال.

هو المالك للأرض وبهده الصفة يعطي للعشائر الأراضي محددة لاستغلالها ولا يحق لغير صاحب الحق الدخول إليها إلا بإذن الامنوكال وذلك فيما عدا العشائر النبيلة .

ويوجد على رأس كل عشيرة رئيسا وبما أن العشيرة النبيلة تفضل على جميع عشائر القبيلة، فإن رئيس العشيرة النبيلة هو، بالضرورة، رئيس القبيلة و العشائر النبيلة ، و هكذا، فإن رئيس - كل غالة- هو رئيس قبيلته، و هو في نفس الوقت، - أمينوكال- زعيم قبائل الأهقار.

ب- انتخاب الرئيس:

و رئيس العشيرة الأولى يختاره مجلس يتكون من رؤساء أسر العشيرة، و لكن هذا الاختيار، لكي يصبح نافذا يقتضي الأمر أن يؤكد مجلس للقبيلة يتكون من رؤساء العشائر من الذكور يمثل القبيلة كلها.

و يمكن لعشيرة ما أن تنطوي تحت علم قبيلة تضمن لها حماية أقوى مما تقدمه لها قبيلتها، و قد كانت عشائر الإبتاع في الماضي تغير ولائها كثيرا و تتردد بين قبيلة و أخرى.

ويعتبر مجلس السلطة العليا التي تضم في تشكيلها وجهاء وأعيان كل القبائل الذين تفوضهم لتمثيلها، يقوم بسن القوانين الملزمة للجميع ويسهر على الدفاع عن الوطن (كأمين المنازل، تأمين المراعي، حضانة آبار المياه، الحفاظ على الأماكن الصالحة للحرث والإشراف على توزيعها وحدود التماس مع الجيران، كما أنه محول بالتفاوض باسم القبائل. إلا أن هذا المجلس قد شهد تغييرات سببتها له القوى الاستعمارية المتعاقبة.

و للمرأة التارقية مكانة محترمة في المجتمع حيث تعامل بكثير من الاحترام و التبجيل سواء كانت تنتمي إلى عشيرة أبيها أم لا و الميراث عند التوارق يجري حسب ما تقتضيه قيم العشيرة والمتمثل في إن المرأة هي التي تقسم الميراث.

الامينوكال: أمين العقال رئيس القبائل وهو من النبلاء. سلالة تين هنان

3- طريقة الزواج عند توارق الأهقار:

حظيت ظاهرة الزواج باهتمامات الدارسين من مختلف تخصصات العلوم الاجتماعية والأنثروبولوجية، نظرا لارتباطها بحياة الإنسان وتطور المجتمع، ولكن لم تلق هذه المسألة اهتمام خاص من الباحثين في المجتمع التارقي .

إن ظاهرة الزواج من الأقارب واسعة الانتشار في كثير من المجتمعات الإنسانية، وخاصة المجتمعات العربية. الزواج (أو الاقتران الشرعي الذي يقره المجتمع) في كل المجتمعات المعروفة لنا موضوع لا يهم مجرد الشخصيين أو الأشخاص المرتبطين برباط الزوجية، ولا تقتصر أهميته و آثاره على المعنيين بالموضوع مباشرة وحدهم. إذ أن الزواج عملية اجتماعية تتضمن خلق علاقات جديدة، ألا وهي علاقات المصاهرة بين الجماعات

و الأفراد المرتبطين قرابة بالزوج و الزوجة، و تختلف أهمية تلك العلاقات من مجتمع إلى آخر، حسب نظامه الاجتماعي و الاقتصادي و السياسي. فقد تكون مجرد علاقات قري تربط بين أسرتي الزوجين، و تستعمل كوسيلة لتبادل المساعدات اليومية، كما هو الحال في بعض المجتمعات الصناعية. و قد تلعب علاقات المصاهرة دورا اقتصاديا و سياسيا فعلا إذا تحولت إلى علاقات تحالف تربط بين قبيلتين أو أكثر كما يحدث في المجتمعات ذات الأنظمة القبلية. و تختلف الحقوق و الواجبات المترتبة على عملية الزواج و العلاقات الناشئة عنها باختلاف المجتمعات و الثقافات. إن اختلاف الطبقة أو الدين أو المركز الاجتماعي: تحتم معظم الاجتماعية اتلي تتفق مع مركز الاجتماعي، فمثلا لوحظ. أن كثيرا من داخل فئة معينة. Endogamie و قد تكون تلك الفئة القبيلة التي ينتمي إليها الفرد أو المجتمع القومي - الأمة - أو الجماعة الدينية، و قد تكون الطبقة المجتمعات البدائية تمنع الزواج من الأوروبيين¹.

1-عاطف وصفي- الأنثروبولوجية الاجتماعية .دار النهضة بيروت ط3 1981. ص120

وهذا الشكل من الزواج يحفظ ملكية الأرض داخل الأسرة أو العائلة ويعزز ويقوي التركيب القرابي.

ويعتبر الزواج ظاهرة ذات شأن وبعد كبيرين في حياة الإنسان وتطور المجتمع وهو نظام اجتماعي، يتصف بقدر من الاستقرار والامتثال للمعايير الاجتماعية سواء في الماضي أو الحاضر تفرض الزواج على غالبية أفرادها، فهو نظام عام حتى ولو كان المجتمع يبيح في الكثير من الأحيان علاقات جنسية خارج نطاقه، حيث أن الأسرة هي أول اجتماع تدعو إليه الطبيعة.¹

الزواج يخضع لنواميس وقوانين لها أبعاد اجتماعية ونفسية واقتصادية، تحمل دلالات وقيم ثقافية تعكس طبيعة كل جماعة إنسانية، وخصوصية كل مجتمع، ولهذا كان الاهتمام به لفهم واقع المجتمعات وتفسير آليات تطورها وأساليب حياتها، وطبيعة بنائها الاجتماعي أهم ما يدعوا للدراسة، وانطلاقاً من هذه الأهمية نحاول وصف وتعريف الواقع الفعلي لعادات الزواج بالمجتمع التارقي .

و الزواج يقع عادة - وليس دائماً - في داخل العشيرة و في الدرجة الثانية من القرابة. و طفل التوارق يرث الجاه و الثروة عن طريق الأم، و أطفال التوارق يعيشون و تجري تربيتهم في حضن العشيرة التي اختيرت للانتماء إليها بصفة دائمة. و الأرملة و أطفالها غير المتزوجين كثيراً ما يعيشون في كنف خالهم. و تقتصر مدة الزفاف على سبعة أيام و لم تعد مناقشة المهر ذات قيمة نظراً لوفرة الإمكانيات المادية والمعنوية.

1- تاريخ الزواج-مرجع سابق. ص.131

لكن على الرغم من ذلك لازالت بصمات العادات التي تشبع بها المجتمع التارقي ظاهرة جلية في مناسبات الزواج تتمثل غالباً في اشتغال المهر على الإبل وأكياس السكر والطور والأثواب الغالية. بل أصبحت قيمة المهر رمزا للتباهي والتفاخر في ما بين افراد القبائل داخل التجمعات السكنية.

1-3- المهـر:

المهر هو حق من حقوق الزوجة على زوجها وهو حكم من أحكام عقد الزواج، أي من آثاره وهو يتصل بأعراف الزواج والطلاق ويهدف في الأصل إلى حماية حقوق الزوجة، إذ يشكل قوة رادعة ضد الطلاق، وهو أحد النوعين: المقدم والمؤخر يدفع المقدم عند كتب الكتاب ولا يعتبر الزواج شرعياً بدونه، فيما يظل المؤخر واجباً غير رمزي يقتضيه الطلاق ولا تتسامح به العائلات بحيث يمكن أن تتسامح مبدئياً بشأن المقدم.

والمهر في المجتمع التارقي يخضع نوعه ومقداره لطبيعة المجتمع حيث يعتبر أغلبه مجتمع رعوي بدوي تتمثل الثروة الرئيسية فيه في الملكية الحيوانية خاصة ملكية الإبل التي تحتل قيمة اقتصادية كبيرة لدى الجماعات البدوية في فترة البداوة فيقاس غنى المرء بمقدار ما يملك من الإبل، وهذا يرجع بطبيعة الحال إلى طبيعة الحياة في البادية التي يعتمد فيها بشكل كبير على الحمل.

أما الزواج من الأقارب أو الزواج الداخلي فيتم داخل الجماعة القرابية الواحدة حفاظاً على وحدة الأسرة والقبيلة وتماسكها الداخلي فضل عن الحفاظ على أملاكها وثرواتها مكانتها الاجتماعية كرمز أو دلالة على نوع من التفاخر وعلو الشأن والمكانة الاجتماعية الرفيعة بين سائر الجماعات البدوية، وهو الغالب، والمهر ينقسم إلى قسمين: مقدم ومؤخر إذا المهر تتحكم فيه عدة اعتبارات اجتماعية واقتصادية تفرضها طبيعة

المجتمع والعلاقات التي تسوده، وهناك علاقة قوية بين نوع وقيمة وبين القيم والأوضاع الاجتماعية السائدة في المجتمع.

ان الزواج من بنت الخال يعمل على استمرارية الصلات التي تزداد تشابكا كلما تكرر ويؤكد النظام الثقافي الأمازيغي على النسب في خط الأم وينعكس ذلك في القواعد المتعلقة بعضوية الشخص في جماعته، وتعاقب تولي المهام السياسية، وحقوق ملكية الأرض واستغلالها. ويشكل ضمان ضد أخطار الجفاف والمرض. ويؤكد الثقافة المحلية.

2-3 حفل الزفاف وعاداته:

يبدأ حفل الزفاف عن اليوم التالي من ليلة العقد ويستمر مدة "سبعة" أيام بلياليها، فبعد مجيء العريس وأهله وتسليمهم المهر يتم الزفاف عند أهل العريس فإن حفل الزفاف في المجتمع التارقي يتم عند أهل العروس، حيث تحضر خيمة خاصة بالعرس وقد يستغل حفل الزفاف كفرصة لفظ الخلافات والخصومات التي تكون قد حدثت بين بعض الأقارب، فيرسل لهم لكي يحضروا الحفل ومن أجل أن تصغي النفوس ويمحى الحقد وأسباب التفرقة والشقاق بين العائلات لذلك ينتهزون فرصة حفل الزفاف لكي يتسامحون ويتراضون، وهذا طبعاً لإشراف من كبار السن ذوي المكانة المميزة والمحترمة في القبيلة وهذا بهدف بقاء الجماعة القراية متماسكة ومتوحدة، وبعد ذلك يبدأ الاستعداد لإتمام باقي مراسم وعادات الزفاف التي توضح كل منها على حدا فيما يلي وهي عادات موروثية تناقلها الصحراويين أبا عن جد ولا زالوا يتمسكون بها الحد الساعة.

3-3 تجهيز العريسان:

تجهيز العريس بسيط في المجتمع الصحراوي ويتكون من الملابس التقليدية المعروفة للرجال ذات الطابع المحلي المميز وهذه الملابس هي ويختلف نوع القماش حسب نوع القبيلة ويتم تجهيز العروس في اليوم الذي يدفع فيه المهر وتبنى خيمة العرس وتجهز، تتولى إحدى قريبات العروس قد تكون أمها أو أختها أو خالتها تجهيزها وقد يستعينون في بعض الأحيان بامرأة خبيرة ومختصة في تجميل العروس، ويوضع في يدين العروس أساور خواتم من الفضة والنحاس و أما الذهب فهناك من لا يستعمله إطلاقاً حيث يسود اعتقاد عند البعض الذي يقول أن المرأة التي ترتدي الذهب فإنه سوف تتعرض هي أو أحد أقاربها إلى مكروه .

كما قد يتبارى الحاضرين في قول الشعر في إحدى الحاضرات أو مدح العريس وعروسه وهذا ما يعرف بأسوات وتجري الألعاب الشعبية التي تمارس أثناء الزفاف كسباق الجمال .

إن إعادة إنتاج الأسطورة كموروث ثقافي رمزي داخل قبائل التوارق وفق الأسلوب الشفوي ضمن تجمعاتها الأسرية التي تجمع من حولها الأفراد الذين لهم نفس رابطة القرابة و يقوم فيها الشيخ بسرد الأساطير البطولية و تمجيد وتعزيز النبلاء من التوارق. هذا السرد الذي يساهم في عملية التنشئة الاجتماعية للأطفال ثقافياً و أخلاقياً.

ويتم ضبط مختلف السلوكات و العلاقات الداخلية حيث تبدأ عملية اكتساب الأساطير وحفظها منذ الميلاد فالأطفال ينشئون ويتشكلون لكي يتماثلوا مع معايير الأسرة والمجتمع الذي ولدوا فيه وتعتبر الممارسات التي يتلقها من أسرته البدايات الأولى لمراحل اكتساب الأساطير ويتعلم التحدث بلغة قبيلته ويتقبل كل الممارسات ويحرص على أن يتماثل معها من أجل استمرار حياته وتصبح بذلك قصة حقيقية ذات طابع قدسي تحمل مغزى هاماً

فهي: التقليد المقدس و الوحي البدائي و العبرة لمن اعتبر " ¹ أي تحوي جانبا من الحقيقة، قد ترتبط بالطقس أو تكون تفسيراً للكون أو تعبيراً عن الواقع الاجتماعي. وتستقبل العروس بقرع التندي وبالعرزف على الإمزاد ومن الأشياء التي تجلبها العروس لبيت زوجها الجمال و خيمة ولوازمها.

4-3 عقيدة الإخصاب:

إن للإخصاب البشري دوره الهام في المعتقدات والطقس في كثير من مناطق العالم القديم لا في منطقة الأهقار وحدها والشعوب التي لم يرتبط الإخصاب بعقيدتها الدينية ارتبط لتقاليدها وأساطيرها ودارت حوله كل آدابها وقد عرف الكثير من الشعوب الإفريقية إقامة النص لهذه العقيدة .

وربطت قبائل الأهقار بين الإخصاب ومكانة المرأة وزينتها ويظهر ذلك جليا في الحلبي التقليدية بحيث يطف المثلث كشكل هندسي على الحلبي التقليدية الشكل المثلثي كان في القديم يرمز إلى صورة المرأة رمزا الخصوبة ² وإذا عدنا إلى تاريخ المعتقد البربري نجد انه عبدوا إله يسمى " أمون " حيث كان يمثلونه في ثلاثة أشياء :

الكواكب ، الحيوانات ، الروحانيات ³ وبما أن التوارق من البربر فيمكن هذا التمثيل للشكل المثلثي على الحلبي كان للدلالة على المعتقد البربري القديم دون أن يعرف الصانع الحلبي هذه الدلالة الموروثة عن الأجداد ، وعندما استفسرنا عن ذلك من طرف الحرفيين كان الجواب عفويا بدون دلالة مما يدل أن الصانع للحلبي لا يعرف سر موروثه .

1- مورييسا الياد. الأسطورة في القرنين التاسع عشر والعشرين مرجع سابق ص 40

2- تاريخ الزواج - مرجع سابق ص 140.

3- المرجع نفسه - ص 148.

ولكن من خلال ما استقيناه من زخارفهم حيث أنها مستوحاة من الطبيعة وجدنا ان الشكل المثلثي يشبه إلى حد كبير أثار مشي الغزال ، ونظرا لرشاقة وجمال الغزال وبما ان الفن البربري فن هندسي فقد عمد الفنان التارقي إلى تمثيله بالمثلث معبرين عن حبهم لهذا الحيوان وهذا الرأي يتناسب مع رأينا حيث أن المثلث يرمز إلى المرأة ، ومن بين الخلي التي تحمل أشكال المثلث " الخميسة أو الخامسة " وفيها خمسة مثلثات وتعلق من جهة لطرده العين والحسد ، ومن جهة أخرى للزينة كما يظهر ذلك جليا في الصورة . وتظهر الأشكال المثلثة أيضا في تسريحة الشعر وتزيين أيدهن بالحناء خاصة يوم الزفاف ويم الزفاف تحمل الفتاة التارقية آلة الإمزاد تيركا بالملكة تين-هنان انظر الصورة ، هذا الزواج الداخلي خاصة عندما يتعلق الأمر بقبيلة الكل غلا وقبيلة الكل طايتوك لأن الارتباط بين الزوجين يحمل طابعا سياسيا فقط يسبب أحدهما حركا سياسيا للآخر طبقا لمكانته و وضعيته و وهذا ما يوضحه الدكتور عبد العزيز رأس مال بقوله .

"كذلك نجد الأدبيات تطرح مواضيع تهدف إلى إثبات نجاح الحب بين الزوجين من طبقتين اجتماعيتين متعارضتين و غالبا ما يتوج بالزواج بحيث بالنسبة للفارس ، أو البارون أو الأمير نفسه ، فإن الزواج عقد سياسي ، و هو إمكانية لمضاعفة قوته ، بروابط جديدة ، إن مصلحة المتزل هي التي تقرر لاختيارات الفرد "1

1-د. عبد العزيز رأسمال، كيف يتحرك المجتمع ،ديوان المطبوعات الجامعية، 1993



صورة من أرشيف قسم حماية التراث الثقافي بـ د.ح.أ.و. لفتاة يوم زفافها

ثانياً: الحياة الاقتصادية لتوارق الأهقار:

ترتبط ممارسة الأنشطة الاقتصادية بالدورة الأيكولوجية هذا النشاط الذي ينحصر في فصل الشتاء في صناعة الجبن والسمن المستخرج من ألبان الأغنام وصناعة بعض الأدوات اللازمة لنقل المياه من جلود الحيوانات . ونظرا لعدم وجود مراعي في المناطق الجبلية فإنهم لا يمارسون الرعي بل يحتفظون بالماشية بالقرب من أماكن إقامتهم فوق الجبال . يصف أندرسون الإنسان بأنه مخلوق يستطيع أن يعيش في أنواع مختلفة من الشروط الطبيعية أكثر مما يستطيع أي مخلوق آخر، ويعنيه في ذلك عدم تخصص جسمه من جهة وعقله الممتاز من جهة الأخرى ، ذلك يحتال بطرق شتى ليجعل من البيئة القاسية بيئة أخرى اصطناعية تسهل فيها الحياة إلى حد كبير. ولكي يقوم الدماغ بوظيفة خير قيام يجب أن تكون بيئة الداخلية، الطبيعية منها والكيمائية، ثابتة مستقرة، فإذا هدد هذا الاستقرار الداخلي ظروف خارجية شديدة التطرف، استعان الجسم عليها بمختلف أنواع الاستجابات الفسيولوجية¹

1 - الوصف الإيكولوجي لمنطقة الأهقار :

تعيش جماعات التوارق في الجبال وعند سفوح بعض الجبال توجد مناطق صالحة للزراعة وتعتمد على الأمطار وعلى البرك المائية. تأثرت الحياة الاقتصادية للتوارق بالظروف الإيكولوجية التي تتميز بها المنطقة ولذلك يقسمون السنة إلى فترات تعرف بالمواسم وفي المناطق الجبلية لا توجد آبار مياه ولذلك يقيم أهالي آبارا من الأحجار.

1 - د. صلاح الدين عمر باشا ، المدخل لدراسة الجغرافيا البشرية جامعة دمشق 1969 ص 68

2- الدورة الايكولوجية:

فاختلاف النشاط الاقتصادي من موسم لآخر يصاحب أيضا حدوث تغيرات فصلية في كثير من النظم الاجتماعية الأخرى ففي فصل الشتاء حيث تمطل الأمطار يرتحل الرعاة ولصعوبة اتصال المكان بعضهم بعض تتأثر العلاقات الاجتماعية بينهم، ويهبط الرحل في فصل الصيف إلى الوديان حيث الاستقرار الذي يوازهم ممارسة حياتهم وأنشطتهم الاجتماعية والاقتصادية. وجود علاقة متبادلة بين القبلية والنظام الاجتماعي القبلي وهذا من خلال النمو المطرد لعدد أفراد المجموعات القبلية.¹

ويخضع التوازن إلى نوعين من التنظيم الاجتماعي تحت تأثير العامل الإيكولوجي يتمثل في الانقسام المؤقت في موسم الرعي ثم التجمع بعد إنتهائه. وتوزع جماعات التوارق في مكان يعتبر أحد وظائف النسق الإيكولوجي الذي يؤدي إلى قيام نمطين مختلفين أي فصل الصيف والشتاء بحيث تضعف الروابط والعلاقات الخ وذلك لتفرق جماعات التوارق في الشتاء وتزداد في فصل الصيف قوة وبذلك النسق الإيكولوجي يكمن وراء مبدأ الاشتقاق والالتحام .

3- تقسيم العمل:

لا يوجد مجتمع بدون تقسيم عمل، فهناك تقسيم العمل الطبيعي الذي يقوم على النوع والعمر وهناك تقسيم العمل الحقيقي الذي يعتمد على التكنولوجيا المعقدة بحيث يسمح بوجود تخصص وإنتاج فائض يمكن تبادله. وفي المجتمعات التي لا يوجد فيها تقسيم عمل حقيقي نجد أن التجارة الداخلية والخارجية لا تتطور إلا بشكل بطيء حيث تتخذ شكل تبادل الهدايا أو التبادل الرسمي.

1- د. محمد السويدي - النشاط الاقتصادي و التوازن الإيكولوجي في منطقة الهوفار - العلوم الاجتماعية ع 3 - 1980.

وعندما يصبح هناك فائض تتخذ هذه المجتمعات طرقاً خاصة لإعادة التوزيع بأنه اقتصاد مختلف ومتكامل ينطلق أساساً من دراسة التفاعل بين الإنسان والبيئة من ناحية وبين النظم الاجتماعية المختلفة من ناحية أخرى.

وأن تقسيم العمل يرتبط بالتخصص وأن التخصص لا يتوقف فقط على الحياة التكنولوجية وإنما يعتمد على وجود فائض في الإنتاج يمكن تبادله للحصول على السلع التي يحتاج إليها أناس آخرون¹

ان تقسيم الأدوار والوظائف بحيث توكل مهام للرجل وأخرى للنساء فرجال العشائر التابعة دورهم ينحصر في الأعمال اليومية والعييد يخدمون في المخيم فكل قبيلة تقسم العمل حسب الانتماء الطبقي والدين والمركز الاجتماعي و الأدوار حسب الجنس ، إذا يوجد لديهم تقسيم واضح لأدوار الرجال وادوار النساء . فينحصر عمل المرأة في بناء الخيمة وفي مجال الزراعة يجب ان نشير على ان الدراسات التاريخية الأنتروبولوجية قد أثبتت فضل المرأة في اكتشاف الزراعة ، إذا أن المرأة نظراً لبقائها المستمر (مقارنة بالرجال) يمكن السكن ، ربما بالصدفة أو عن عمد قد جربت زراعة بعض الحبوب التي نبتت وأثمرت².

تقوم النساء بالتربية والعناية بقطعان الغنم والماعز، هذا النوع من الحيوانات أسهل من تربية ورعي الجمال.

1- سغفان حسن شحاتة، تاريخ الفكر الاجتماعي، دار النهضة العربية، 1975 ص 25

2- نيو جان - الأنتروبولوجيا و البيولوجيا - مطبوعات اليونسكو - 1975 ص 65

أ-الرعي:

يعيش: توارق الأهقار على المواشي انقسام التوارق إلى مجتمعات صغيرة عندما يكون التنقل لمسافة طويلة بقيادة المخيم وتولي عملية البحث على المراعي الجديدة مهمة النبلاء من القبيلة ورؤساء العشائر، والرعي الوسيلة الأولى لكسب القوت عند توارق الأهقار سواء داخل الأهقار او البلدات المجاورة (مالي و النيجر) ، أثناء التنقل لبحث عن الكلاء وتبقى النساء والشيوخ والأطفال بالمخيمات في الموطن الأصلي مع قطعان من الماعز.

ب-التجارة:

التجارة كانت مبنية على المقايضة سابقا و مازالت و كان الملح يستبدل بالتمور والحمير والجمال والملابس المستوردة من الشمال والماعز تمثل مجموع الرأسمال فهي أساس الاقتصاد. وللجمال أهمية كبيرة لا لكونه وسيلة نقل رئيسية فحسب بل لأنه يعتبر مصدر لعدة احتياجات ورمز المجتمع التارقي فهو مصدر اللحم واللبن، اللذين يفضلهما الإنسان التارقي على سائر اللحوم والألبان الأخرى ووبره الذي يصنع منه أحيانا الخيام وجلده الذي تصنع منه أدوات عديدة.

ويرى الكثير من أنصار نظرية التمييز بين المبادلات الاجتماعية والمبادلات الاقتصادية مثل العالم مالبينوفسكي حيث اعتبر أن الدوافع الاقتصادية ليست لها قيمة في مجال التبادل الاجتماعي وأوضح أن قيمة السلعة المتضمنة في مجال التبادل الاجتماعي سواء كانت أساور أو عقود هي قيمة رمزية ومادية حين تدور هذه النظرية حول ما تمثله بين الماضي والمستقبل وليست ما تستحقه السلعة في ذاتها. ومن هنا فإن مالبينوفسكي ينكر قيمة الدوافع الاقتصادية في مجال التبادل الاجتماعي. حيث يرى أن سلع التبادل الاجتماعي ذات قيمة رمزية فقط. وأن وظيفتها تتمثل في إيجاد التعاون والتساند والتضامن الاجتماعي بين الأفراد والجماعات المشتركة في عمليات التبادل الاجتماعي.

فيعتبر التبادل والتزاور والمساعدة في وقت الحاجة عوامل تعمل على تقوية التماسك الاجتماعي بين الجماعات. فنظام التبادل يتخلل البناء الاجتماعي ويمكن بذلك اعتباره شبكة اجتماعية تشد أجزاء المجتمع بعضها إلى بعض وتجعلها في حالة راحة من التعاون والتساند ويظهر ذلك بوضوح في المجتمعات البدائية التي تتميز بالبساطة بكل نظمها حيث أنها تقوم بالتبادل عن طريق صور ومظاهر كثيرة منها تبادل فائض الإنتاج لهذا فضلا على أنه يعد وسيلة مهمة من وسائل الحرب والسفر الطويل نظرا لما يتمتع به للقدرة على تحمل ظروف الصحراء القاسية، ونظرا لتلك الأهمية الاقتصادية التي يتحملها الجمل عند الجماعات البدوية فإن المهر عندهم يتحدد في عدد معين من الإبل يختلف باختلاف العائلات ومصالحها، والتفاوض على عدد المهر ونوعه يكون في العقد بين أهل الفتى وأهل الفتاة فقد يطول بهم المجلس إلى آخر الليل في الأخذ والرد في عدد الإبل المطلوبة في المهر بل قد يفشل الزواج في أحيان كثيرة بسبب تشدد والد الفتاة في طلبه عدد معين من الإبل ولا يتنازل عنه إلا بصعوبة.

ج- الزراعة:

أما الزراعة فلم تكن تمارس في شكل دائم بل تكاد لا توجد أبدا إلا أنه في بعض الحالات خاصة في الموسم الكثير المطر يمارس نوع من الزراعة الموسمية وتتم الزراعة إلى دخلت إلى المنطقة على يد أهل توات وخاصة في عهد البكري وتنتشر الزراعة في منطقة تازروك وان مقل. دخلت عناصر ثرية جديدة على منطقة الأهقار للقيام بأعمال الزراعة وحفر الآبار والفقارات أدى إلى استقرارها في المنطقة وظهور علاقات اجتماعية واقتصادية وسياسية جديدة .

وهكذا على أساس القرابة حيث تتخذ القبيلة وتستمد قوتها أيضا من ممتلكاتها الاقتصادية إذا لا حسب لمن لا ملكا له وإمكانية الملك لدى مجتمع التوارق يمنحها النسب الذي يكون جدير بالأرض وتتكافل الجماعة مما يؤهل الملك للتكاثر خدمة للجماعة، الأمر الذي يجعل تكاثر رؤوس الأموال وبالتالي يكون عاملا أيضا للحصول على مركز اجتماعي مرموق.

فعالم التوارق عرف تغيرا من خلال انتقال قيم وأشكال الحياة الحضرية ولكن مازال أسلوب الإنتاج الرعي والزراعي لم يعرف تغيرا واضحا وعميقا وذلك لارتباط هذه العناصر مع بعضها البعض بسبب انتمائها للقبيلة.

إن الاستشهاد بالماضي ليس مجرد تغيير للحاضر وإيضاحه، بل إنه أيضا يجعل هذا الحاضر صالحا، وهذا بخاصة في الأقاليم والأساطير التي فيها مسحة من القداسية والتي تستمد منها كل المجتمعات أسس تنظيمها الاجتماعي ودعامة قواعد معنوياتها. التشديد على الأساطير لأنها تشمل على ضمان الحقوق للأوضاع بين الناس، وللحقوق السياسية وخاصة رؤساء القبائل يعتبرون أنفسهم هم أصحاب هذه الأساطير والتقاليد. وهم وحدهم لهم حق السماح بترديدها ولهم حق تقرير مدى صلاحيتها.

التفاخر بالماضي هو تفاخر بالأصل والأصل هو أقوى من الفرع وأيضا تذكير الناس بماضيهم حيث لهم روابط الحاضر بالماضي، تذكيرا لحياة الأسلاف الذين لهم نصيب من التقدير والاحترام إن لم يكن التقديس والعبادة.

ومع تطور المجتمع الجزائري وتطور نظام التجارة والاقتصاد أصبح التبادل يأخذ شكلاً مختلفاً عن السابق وطغت عملية الربح والكسب الشخصي في هذه العملية. وأصبحت التجارة عملية اقتصادية بحتة تخلو من العلاقات الشخصية الحميمية وبدأت تزول المكاسب الاجتماعية التي كان التوارق يبحثون عنها أو يحاولون الحصول عليها في عمليات التبادل.

وهناك شكلان من أشكال التجارة في الاقتصاد الحديث وهي التجارة الداخلية والتجارة الخارجية. وأدى تطور المجتمع البشري وازدياد عدد سكانه وكثرة حاجاته الإنسانية واتساع نطاق التخصص وتقسيم العمل بين أفرادهم إلى خلق فائض لديهم مما جعلهم يقومون بمبادلة السلع والخدمات مع الفائض الإنتاجي لمجتمعات أخرى أو للأفراد الآخرين ، وتبدلت وسيلة النقل للتبادل من الجمل الطبيعي الى الجمل الميكانيكي (سيارة 4x4) .

الفصل الثاني

الأسطورة والحياة الثقافية

أولاً: اللباس تطوره وعلاقته بالدين والبيئة :

1- اللباس والأساطير

2- أسطورة اللباس

ثانياً: الرقص والموسيقى عند التوارق:

1- الرقص:

2- الموسيقى عند توارق الأهقار:

الفصل الثاني: الأسطورة والحياة الثقافية

أولاً: اللباس تطوره وعلاقته بالدين والبيئة

1- اللباس والأساطير

تبدو العلاقة وطيدة ومتبادلة بين الجسد الإنساني واللباس، فالثياب هي اللحظة التي يصبح فيها المحسوس دالا، وبالتالي حاملا لعلامات خاصة ينقلها الجسد كوعاء معرفي إلى اللباس. بين الأسطورة والواقع تشير بعض الكتابات إلى ان حنان الأم قد يكون دافعا بدائيا لإيجاد الألبسة والأغطية لكن الثابت أكثر انه يمكن إرجاع هذا (الاختراع) إلى سببين اثنين يمكن تحديدهما بالأسطورة الدينية والاتجاه العلمي، ففي الأول ترى الأسطورة القديمة إن (برتا Berta) البطلة كانت امرأة غزلت ونسجت بيدها أول ثوب في العالم إيمانا منها بأن هذا الكساء سيحلب لها أنظار المعجبين، ولقد نسب اليونان القدماء الملابس إلى هرمس - عطارد، بينما نسب قدماء المصريين الملابس للإله (طوت) وذلك مع بقية العلوم والفنون الجميلة وتشير الأساطير الدينية بأغلبها من قريب أو بعيد إشارات عن الأزياء منذ بدء الخليقة مما يتعلق بوصف عري آدم وحواء بعد ان أكلا ثمرة المحرمة وشعرا بالخجل الشديد والندم على هذه المعصية فأدركا بأكما عاريان وشعرا بالحاجة لستر عورتكما فاستخدما بداية أوراق التين و من هنا ترجع تغطية الإنسان لجسده إلى الأسطورة الدينية و أسطورة الخطيئة¹.

مرت الأزياء بمراحل متتالية من التطور، والتنوع، ولقد حققت وصولها إلينا كقيمة معرفية اما من خلال الرسوم الجدارية في الكهوف والمغاور عند الانسان في العصر الحجري القديم، او من خلال ما رسم في المقابر عند المصريين، او عبر التماثيل

1- كامل حسني -تاريخ اللباس و تطوره - 2002 ص 43.

والمنحوتات، وأخيرا من خلال كتابات المؤرخين القدامى وتحاليل علماء الآثار المعاصرين، ومما لا شك فيه أن أكثر العصور وضوحا من حيث معرفتنا بالأزياء، هي العصور القديمة والعصور الكلاسيكية.¹

ونقصد بالعصور القديمة تلك التي قطن فيها الفينيقيون والكنعانيون والأشوريون والمصريون وآخرون ومن أهم المصادر التي يمكن اعتمادها للدلالة على تطور الأزياء في هذه الفترة.

الكتابات الهيروغليفية التي أثبتت أن الفينيقيين كانوا من سادة صناع الملابس في العالم، حيث جابوا البحار متاجرين بصناعتهم ومنتجاتهم إلى أكثر بقاع العالم، ما بين أواخر الألف الرابعة ومنتصف الألف الثالثة ق.م.²

بينما في الآثار والرسوم التي تركها فراعنة الملكية المصرية الحديثة، أي بعد 500 عام، فقد أوضحت أن الأزياء بقيت على حالها ولم تتغير إلا تغيرا بسيطا، حيث استطال ثوب الرجال حتى القدمين وأصبحت له ثلاث فتحات، الأولى للرقبة، والباقية للذراعين وذلك حوالي العام 1900 ق.م.³

و قد اعتمد الإنسان أوراق الأشجار هذه في فجر حياته لأنه لم يكن قد اخترع بعد الأدوات الحادة التي يستطيع أن يستخدمها في قتل الحيوان و الحصول على جلده. أما

1- منشورات متحف البارود بالجزائر العاصمة-قسم الإثنوغرافيا ص 48.

2- المرجع نفسه ص 51.

3- بوطاوس عبد المنعم ، الإنسان والكهوف، ديوان المطبوعات الجامعية، 1988، ص 33

الملابس المصنوعة من المنسوجات فلم تظهر إلا بعد ذلك بوقت طويل جدا ، ذلك أن الإنسان أصبح لا يكتف بجلد الحيوان كما هو بل أخذ يحاول أن يجعله ملائما لجسمه .
و تطورت الملابس تدريجيا فأصبحت نوعا من التأنق و إبراز الجمال في الجسم، وتدل الآثار القديمة على أن الإنسان حتى في مرحلة الوحشية كان يميل إلى أناقة، فعندما كان معظم جسمه عاريا كان يزينه بأنواع الوشم و يتفنن فيها¹.

ومهما يكن الأمر فحتى الآن تعتبر الحضارة المصرية أقدم الحضارات ذلك لأنه مقابر قدماء المصريين ومتاحفهم وما امتلأت من كنوز وتحف تدل دلالة واضحة على أن هؤلاء القوم قد بلغوا من الترف و التأنق في الزي مبلغا كبيرا حتى إنهم لم يتخذوا من الزي مجرد غطاء للجسد ، بل كانوا يقومون بعملية حضارة مركبة يقدرون فيها تأثير المناخ و اللون ونوع النسيج ، وقد ثبت لنا ذلك عندما حاول مصممو الأزياء المحدثون أن ينفذوا الأزياء المصرية كما رأوها في رسومهم فوجدوا : جو مصر الحار، فاتخذوا رداءهم من نسيج خفيف شفاف يتفق و الجو الحار. ونظرا لأن المصريين شعب ملون يميل إلى السمار فقد غلب في أزيائهم اللون الأبيض.

2- أسطورة اللثام

يرددون التوارق أساطير متنوعة حول الشاش أو اللثام ولكن أشهرها أن طائفة من لمتونه خرجوا مغيرين على عدوهم فخلفهم العدو إلى بيوتهم ولم يكن بها إلا المشايخ والصبيان و النساء ، فلما تحقق المشايخ إنه العدو أمروا النساء أن يلبسن ثياب الرجال و يتلثمن و يضيقتنه حتى لا يعرفن ، ويلبسن السلاح ففعلن ذلك وتقدم المشايخ و الصبيان أمامهم و استدار النساء بالبيوت فلما اشرف العدو رأى جمعا عظيما فظنه رجالا فقال : هؤلاء عند حرمهم يقاتلون عنهن قتال الموت ، و الرأي أن

1- - كامل حسني، مرجع سابق

نسوق النعم و نمضي ، فإن اتبعونا قاتلناهم خارجا عن حرمتهم فبينما هم في النعم من المرعى إذ أتيا رجال الحي فبقي العدو بينهم و بين النساء فقاتلوا من العدو فأكثروا ، وكان من قتل النساء أكثر وكانت تتوسطهن حفيدات تين هنان يعزفن الإمزاد فأحدهن لوحت بسيفها وأسقطت عددا كبيرا من العدو و منذ ذلك الوقت جعلوا اللثام سنة يلزمونه فلا يعرف الشيخ من الشباب فلزموا اللثام ————— بركا به .¹ فلا يشرع التارقي في وضع اللثام و لبسه إلا إذا بلغ الخامسة و العشرين من عمره فعندئذ تقام احتفالات طقوسية لوضع اللثام أول مرة وتصاحبها وليمة كبرى يقدم فيها الطعام و الغناء و الرقص فهم يقولون لا يصبح الرجل طاهرا و تقيا إلا إذا لبس اللثام .

ولا يسمح التارقي إطلاقا لأحد بالإطلاع على وجهه و حتى لأهله ، لا يترعه ليل نهار حتى في المنام ، و حتى في أثناء تناوله للطعام فعند ذلك يرفع التارقي القسم الأسفل من اللثام الذي يسمى (إيماول) ليأكل برفع يده إلى فمه ، ثم إذا احتاج فيما بعد إلى ربط اللثام فإنه ينتحي جانبا في دغل من الأدغال ليخفي ملامح وجهه حتى على أفراد أسرته ولكن هم يتعرفون على بعضهم البعض بسهولة حيث يقول ابن حوقل في هذا الشأن " ولم ير لأحدهم ولا لضهاجة منذ كانت من وجوههم غير عيونهم، وذلك يتلثمون وهم أطفال وينشئون على ذلك"² و اللثام الذي يحمله التوارق ، على عكس الاعتقاد السائد ، ليس بلباس وقائي ضد رياح الصحراء و زوابعها الرملية و لو كانت له هذه الميزة لسارعت جميع قبائل الصحراء إلى تنبيهه منذ أجيال طويلة ، ولكن عادة عريقة حيث كان قدماء الطوارق يحسبونه لوقاية الفم و المنخار ، و بالتالي ، مداخل الجسم من تسرب الأرواح الخبيثة إليه .

1- عن رئيس المجلس الشعبي الولائي فهو من سلالة قبيلة كل طايطوك

2- ابن الحوقل - صورة الأرض - بيروت - منشورات دار مكتبة الحياة - ص 159.

فالناس بحاجة ماسة لثياب تكون مناسبة لحياتهم و تقيهم من العوامل الطبيعية و تساير طبيعة معاشهم اليومي و انتمائهم الديني و الجغرافي وهذا ما نلمسه لدى قبائل التوارق فاللباس يعتبر الشيء المميز و له مكانة خاصة لدى الأشخاص البالغين، و لكن ما هي خصائص هذا اللباس اللثام ؟

1-2 خصائص اللثام التارقي

- النوع الأول:

اللثام نوعان : ألسو ALECHOU و الشاش هو قطعة من القماش تتكون من أشرطة Tsoua بنيقة حيث عرض كل شريط حوالي 3 سم يخاط بعضها على بعض مكونا ألسو ، فلا يلبسه إلا الأغنياء و النبلاء أثناء الاحتفالات و المناسبات الدينية ، ويتكون من (60بنيقة) و طوله حوالي (8م).

و يؤتى بهذا القماش من قرية تسمى " كانو " بنيجيريا و عندما يصبح رثا يسمى ب " التمهاق تجملوست " و هو ذو لون أزرق قاتم (نيلي) و يحوي مادة النيلة تساعد الشخص لحمايته من الحر و البرد .

- النوع الثاني :

يسمى الشاش وهو اما أن يكون أبيض أو أسود و هو ذو استعمال يومي أي أثناء أوقات العمل أو في الأيام العادية و يسمى بالتمهاق الخنط Kent " أو بوكار "Boukar" و هو مستعمل بين الأتباع (الامراد) ،الرعاة الكبار و حسب بعض الأهالي من التوارق ينسب هذا النوع من القماش إلى العرب .

فالشباب منذ السادسة من عمره يبدأ في ارتداء اللثام فهو رمز الرشد والبلوغ وغالبا ما يكون ارتدائه بمناسبة بداية صيام شهر رمضان حيث تقام الاحتفالات على شرف الشباب الذين وضعوا اللثام (الشاش) ، فكلمة فلان ينقب تعني مرور الطفل

من عالم الصغار إلى عالم الكبار حيث في الماضي كان الشاب التارقي يقوم بمنازلة مع أقرانه قبل أن يضع اللثام حتى يظهر رجولته، قوته و بلوغه الفيزيولوجي و العقلي و نظرا للحياء يحمي رجولته و نضجه و هذه الخاصية لا نجدها عند فئة الإكلان أي العبيد لأن اللثام دلالات اجتماعية ودلالات رمزية.

2-2 الدلالات الاجتماعية للثام:

إن طريقة ارتداء الملابس له دلالة اجتماعية ومثال على ذلك طريقة ارتداء اللثام عند قبائل التوارق، بحيث يرتدي الرجل التارقي جلبابا و لثاما أزرق يتدلى من على قنطرة الأنف وحتى أسفل الذقن ولا يمكن رؤية شيء من جسم الشخص سوى اليدين و القدمين ومنطقة حول الأنف.

ويطلق على اللثام بلهجة التوارق لفظ "تيجلموسن"¹ وهو يعتبر قطعة زي مميزة وهامة جدا . بالنسبة للتوارق ويختلف التوارق في طريقة ارتداء اللثام وفي حجم المنطقة المكشوفة رموزا اجتماعية ومركزه في التدرج الاجتماعي فاللثام يحفظ خصوصية الشخصية الفردية ، ويعمل اللثام على إخفاء الوجه لأن كشف الوجه يتضمن انتهاكا كالقانون الأخلاقي ويشير إلى تدنى المكانة الاجتماعية للفرد.

إن عدم ارتداء اللثام ، يشير إلى مكانه دنيا ، فالأفراد الذين لا يرتدون اللثام إما أنهم ينتمون إلى قبائل العبيد (إكلان) الدنيا أو كانوا من طبقة العبيد ، وعندما يتقابل التارقي مع شخص ذوا مكانه عالية أو سلطة يرفع لثامه إلى درجة أعلى من منطقة الوجه ، بينما يحتفظ الشخص الذي يشغل مكانه أعلى باللثام على الوجه ، ولكن في منطقة أدنى بالنسبة للثام الشخص الذي يتصل مكانه أقل أما جماعات الرفاق فإنهم يرتدون اللثام عند طرف الأنف عندما يخرجون معا إشارة إلى المساواة في المكانة الاجتماعية.

1- نسبة إلى قبيلة سحلماسة بصنهاجة .

وتمتد الرموز الاجتماعية لارتداء اللثام إلى العلاقات الثنائية داخل النسق القرابي فالشخص يرفع اللثام عالية من الوجه أمام حماه أو حماته دلالة على وجود علاقات الاحترام و التحاشي في الوقت نفسه، وعلى هذا الأساس يشير وضع اللثام على الوجه عندما يتقابل شخصان تربطهما صلة قرابة ، إلى علاقات التحاشي. التوارق يختارون القماش للثام فهو مقدس عندهم على عكس العبيد الذين لا يغطون الوجه كاملا، فهم يعرفون بعضهم حتى من فوق ظهور الإبل من بعيد.

2-3 الدلالات الرمزية للثام

ومن ثم يرمز اللثام لبركة القوة التي تمكن الإنسان من توافر سيطرة تؤثر في الأعمال وارتبطت ببعض المعتقدات التي أعطتها جانبا من القداسة وصارت لها طقوس، حيث حدثوني التوارق¹ عن سر اللثام بقولهم إذا تنح اللثام يتلوث الجو ويحدث الجذب و تعم المجاعة في الصحراء و إذا احترمت قداسته توافرت الأمطار وكثرت المراعي وعم البلاد الرخاء، فهذه البركة مقدسة صالحة للانتقال من مكان إلى آخر فهي تمثل طبيعة الجوهر اللازم على مثال البذرة التي تغيب في باطن الأرض لتنتب الشجرة.

1- حدثوني أهالي الأهقار التابعين لقبيلة الكل غلا النبلاء عن خبايا اللثام عند قيامي ببعض الزيارات والمهام الاستطلاعية في البعثات العلمية الخاصة بديوان حضرة الأهقار الوطنية .

ثانياً: الرقص والموسيقى عند التوارق:

إن تشعب الأنثروبولوجيا الثقافية إلى عديد من التخصصات كدراسات الاصطباغ الثقافي وعلم موسيقى الأجناس **ethnomusicologie** ودراسة الفن البدائي هذا العلم الذي يعتبر مجالاً للاهتمامات المنصبة بصفة خاصة على النظام الاجتماعي، ويعتبر الرقص من أقدم الفنون إلى جانب الموسيقى، وقد حاول العالم النفسي والمغني جلين ويلسون إلقاء الضوء على عدد من النشاطات والعمليات السيكولوجية والاجتماعية المرتبطة بفنون الأداء كالخيال والطقوس والأساطير والغرائز واعتبر فنون الأداء كالرقص والموسيقى والغناء وغيره جوانب مهمة وشديدة الحيوية من الخبرة والتفاعل.¹

1- الرقص:

الرقص ظاهرة عامة في المجتمع البشري فيمكن أن نجد في كل مجتمع طابع الرقص الديني و الرقص للاحتفال بمختلف صور النشاط البشري من حرث الأرض و إلقاء البذور و جمع الحصاد و إسقاط المطر وتختلف المجتمعات تبعاً للمناسبات التي تعقد لأجلها حلقات الرقص سواء اقتصر الرقص على الرجال أو النساء.²

يعتبر الرقص من أبرز الفنون ابتكاراً وطرفة و هو ملكة طبيعية يمتاز به الإنسان عن غيره من الكائنات الحية فكل إحساس مجسد في حركات، يتحرك من خلال استلهامات واندفاعات الجسد فيبرز - نضاماً - حركياً يتحول في دائرة إحساسات ذات شكل إيقاعي.³

1 - جالين ويلسون - سيكولوجية فنون الأداء - مطابع الرطن الكويت - 2000 ص 08.

2 - الرجوع نفسه - ص 12.

3 - حدوش صابرية، فن الإيقاع، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، 1997، ص 71

والرقص جزء رئيسي من برامج الاحتفال بحيث يرتبط الرقص لدى التوارق بالإخصاب، كما تقام في بعض القبائل من سلالة النبلاء حفلات الرقص عند مولود طفل جديد وخاصة عندما يتعلق المولود بأثني، وعند فترة البلوغ بالنسبة لكل الجنسين وربما كانت هذه أهم الفترات التي يمر بها الرجال، ذلك لأنه في ختام هذه المرحلة يتحول الفتى إلى مرحلة الرجولة وعندئذ تقام احتفالات طقوسية لوضع اللثام أول مرة يقدم فيها الطعام و الغناء و الرقص، وتختلف الرقصات من قبيلة إلى أخرى وذلك باختلاف الإيقاع الخاص و الموسيقى الراقصة من جهة و الآلات المستعملة كالطبل و التصفيق و الأشعار المصاحبة للموسيقى من جهة أخرى.

الرجل التارقي يعشق الرقص فهو يرقص للسلم و الحرب وفي الأفراح و تافسيت¹ وحتى للمرض فهو ذواق للفن.

فيعتقد التوارق أن المرض الذي استعصى علاجه أن الجن قد مسه ولهذا يعزلونه في خيمة نظيفة و مزخرفة و بعيدة عن المخيم و يقوم أحد الرجال العقلاء بخدمته ولا يسأل أحد عنه أو عن نوع مرضه و يقومون برقصة تزانغاريت ، و كل رقصة أخرى لها مدلولها الرمزي والاجتماعي :

1-1 تزانغاريت (tazenyerent) : حيث يتحول فيها الترقى من حالة نفسية إلى

أخرى فيقومون بالرقص لعدة ليال و يعزف للمريض موسيقى الإمزاد وحدثوني التوارق أن كثير من هؤلاء المرضى قد تم شفائهم بهذه الطريقة و التزانغاريت تعني النطق بواسطة الحجر وهي عبارة عن أغاني و رقصات تشترك فيها الرجال و النساء و يبلغ تأثير المغنين حد النشوة و الإغماء .

تافسيت : تعني الربيع بالغة التارقية و يحتفل التوارق بالربيع في شهر أبريل من كل سنة ورمزه اللون الأصفر و اختير هذا اللون نسبة لفتح الأزهار على قمم جبال الآهفار .

1-2 رقصة الحرب أو تاكوبا (Takouba) : وتاكوبا تعني السيف فهي رقصة من تراث الماضي و أن الجماعات التي تمارسه في طابع تمثيلي فهي تجري لغرض اجتماعي بحيث هذا النوع من الرقص هو الذي كان يقرر سيراً لحوادث في ميدان القتال ،وعلى النساء أن يشتركن في رقصات الحرب و لكن في مجموعة خاصة بهن وذلك بعزف الإمزاد لتستهدف حماس المحاربين ، وتصحب الرقصات قصة أو أسطورة من الأساطير للتذكير ببطولات الأسلاف وشجاعتهم خاصة النساء .

1-3 تهقلت tehigelt : تعني العزوبية فقد تتحمس للمرأة التي في حاجة إلى النصف الآخر.

و هناك رقصات مربوطة بالزراعة كما يسميها أهل " التديكلت " **Tidikelt** التوزيع و التي دخلت إلى بلاد الأهقار بدخول المزارعين إلى المنطقة قادمين من توات (أدرار) وعين صالح وهذا بطلب من الأمنوكال أحمد البكري ويذكر شارل دي فوكو (**Charles de Foucauld**) أنه في سنة 1910 كانت رقصة البر زانة أو البارود، التوزيع متداولة بين الحواطين المزارعين القادمين من منطقة توات و تيدكلت وإن صالح، وقد ساهمت هذه الفئة (المزارعين) في تحول النظام الاجتماعي و الاقتصادي للمجتمع التارقي و جعلته ينتقل من الترحال إلى التمدن و الاستقرار.¹ والتوزيع انتقلت من ارض التجسيد الحقيقي إلى ميدان العرض التمثيلي والتي تعبر عن التلاحم والكل عبارة عن جسد واحد.²

فلا يمكن أن نتحدث عن الرقص لدى سكان الأهقار دون أن نتحدث عن ثياب الرقص فالرجل يرقص وهو ملثم ولا يظهر من وجهه إلا العينان ويضع اللثام الأزرق و النساء تستعملن الأقمشة الملونة الزاهية وعادة ما يصطحب الرقص بموسيقى على الأقل من دقات الطبول أو من اصطدام الأساور النحاسية التي تغطي سواعد و سيقان الراقصات.

1- Charles de Foucauld, Dictionnaire, Touareg, P310.

2- Charles de Foucauld, Opcit, P355.

فالرقص عند التوارق لا ينفصل عن أي شيء فله طابع طقوسي و التوارق لا يرقصون فرادى بل يرقصون جماعات و يمكن أن نترجم الرقص على أنه العمل من أجل المجتمع والاستمتاع بثمره العمل الجماعي. فالغرض منه وتوضيح فكرة معينة والوصول إلى غاية معينة وهذا لخلق علاقة صادقة مع العالم ومع الآخرين كما يعبر الرقص عن تطلعات جماعية وله ترابط وثيق مع الطقوس و المعتقدات.

2- الموسيقى عند توارق الأهقار:

كانت الموسيقى عنصرا هاما في حياة المصريين بجدها في حفلاتهم و استعراضاتهم وطقوسهم الدينية، فقد تصحب اللوائم الموسيقى و الرقص أيضا يمثل كلاهما فتاة تلعب على إحدى الآلات الموسيقية¹، وقد استعملوا أدوات موسيقية متعددة أو بالنسبة لمجتمع التوارق تتعدد فيه الأنواع الموسيقية وترتبط بالموثرات التاريخية المتمثلة في الناحية الجغرافية و السياسية والاجتماعية و الدينية والاقتصادية فلا يمكن تجاهل البنية الاقتصادية للمجتمع إذا رغبتنا في تحليل ومعرفة نوعية موسيقاه فالجمال الموسيقي " يشترك " في أغاني في الزراعة وتقسيم العمل نفسه .

تبرز صابرية نقلا عن كلود لفي - ستروس خط التوازي بين الحكاية الأسطورية و بين التأليف الموسيقي، مشددا على فارق جوهري بينهما ، هو أن الموسيقى تستعمل اللغة الطبيعية (الكائن الصوتي) ، في حين أن الأسطورة تحتاج إلى اللغة بكاملها لكي تعبر عن مضمونها الأسطوري: " أن الصوت هو كل الموسيقي² ، في حين أنه يضاف إلى الأسطورة بوصفه جزءا من المعنى في الموسيقي يأتيها من خارج الصوت، و أما في

1- جالين ويلسون مرجع سابق، ص 23

2- حدوش صابرية، فن الإيقاع مرجع سابق ص 113

الأسطورة فإنه يأتيها من فوق البني اللغوية و الصوتية، ذلك لأن الوظيفة الدلالية للأسطورة لا تتبع من داخل اللغة، بل من فوقها، و بالتحديد من اللهجة المحتملة التي يعطيها الراوي للحكاية الأسطورية، و أما في الموسيقى فتمارس الوظيفة الدلالية تحت اللغة " ¹ فالتعبير الموسيقي لدى توارق الأهقا مربوط بالانتماء القبلي فكل تشكيلة قبلية لها نوع موسيقي خاص بها هذا التقسيم الموسيقي الذي فرضته الأسطورة من جهة والظروف الاجتماعية من جهة آخر ويمكن حصر الأنواع الموسيقية في:

أ- موسيقى شفاهية :

تتمثل في الاحتفالات مدائح دينية السبوع اليوم السابع لمولد النبي عليه الصلاة والسلام ، الختان أو العودة من الحج و عند القيام بالوعادات والحضرات أو الزيارات للأولياء اله الصالحين كما يسميها أهل المنطقة

ب- موسيقى شفاهية مشتركة بالآلة :

هي الموسيقى التي يستعمل فيها الرجل التارقي الآلات الموسيقية كالإمزاد ، والتندي تهيقلت، تنغاريهت و ألوان الأشعار المصاحبة لهذه الآلات هذه الآلات منها من ارتبط بالطقوس والمعتقدات ومنها ما ارتبط بالأساطير وتظهر على شكل رموز.

1-2 الأسطورة والرمز:

تعد الأسطورة في وجه من وجوهها نظاما من الرموز، يفتتح على أسرارها، حين ندرك بدايته الممتدة في الأعماق، أعماق الحضارات الإنسانية، فعرفت بأنها " نظم لوقائع رمزية في مجرى الزمان " ² و إنما ضرب من الحكاية التي تعبر بكلام رمزي عن أفكار دينية أو فلسفية، عن خبرات معيوشه من قبل النفس تكمن فيها دلالة الأسطورة بمعناها الصحيح .

1- د خليل أحمد خليل، مضمون الأسطورة في الفكر العربي، دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت، 1986، ص 15-16

2- نيار جمال الدين أسرار الكون، مؤسسة الفضي للطبع والنشر تونس 2001 ص 79

إن فكرة البعد الرمزي للأسطورة لم يعرفها الإنسان الأول، فهو لم يكن قادرا على تمييز الرمز عما يمثله، فالشمس عنده على سبيل المثال لا ترمز إلى الإله وإنما هي الإله نفسه، و المعروف أن الإنسان القديم ظل زمنا طويلا يعبدها لأنه كان مقتنعا بأنها الإله ، إذ كانت تشكل عنده ماهية مستقلة ، فلم يكن هناك رامن و مرموز إليه ، ولم يظهر التمييز بينهما إلا بعد أن استطاع أن يرى الرمز لذاته فقط

للأسطورة أرضيات مختلفة بزغت فيها و احتوت هذه الأرضية بكل آفاقها و أبعادها، فحملت دلالات اختلفت حولها التأويلات باختلاف النظر " و من ثم فلا وجود لتفسير رمزي واحد للأسطورة " وأيا ما يكون الأمر من اختلاف التفسيرات .فإن النقطة الأساسية التي يركز عليها علماء الأنتروبولوجيا في كل توجهاتهم، هي ضرورة تفسير الأساطير ضمن البناء الاجتماعي و الثقافي السائد في المجتمع الذي تنتمي هذه الأساطير إليه " ¹

2-2 الممارسات الموسيقية:

1-آلة الطبل: ettebel

الطبل رمز السلطة وعنوان هيبتها ورمز قوتها ، والخيمة التي تحتوي الطبل لا يمكن أن تكون إلا خيمة السلطان (امنواكال) ،الطرق على الطبل لا يكون إلا في الظروف المعنية سواء للتبليغ أو للتجمع .

هو عبارة عن صندوق للرنين شكله نصف كرويا وهذا الصندوق (شجرة أهتس (ACACIA ALBIDA) الجلد المثبت عليه بواسطة سيورة (lanieres) هو جلد العجل يحمل الطبل بواسطة حلقتين كبيرين من حبل ، يطرق على الطبل بواسطة عصي (battoirs) يطلق عليهما باللحجة المحلية إسم (اتاكور attakor) بالفرد

و (إيتكار **ittkar**) بالجمع . يتغير حجم الطبل من آلة إلى أخرى يتراوح قطره ما بين 50 إلى 70 سم . فالصندوق إما يكون مصنوع من نبتة اليقطين الكبيرة (قرع) أو من معدن الحديد، الطبل يحمل من طرف رجلين وكل واحد منهما بيده عصي (**battoir**) ويضربان بهما بالتناوب على الجلد ويرمز الطبل لتجمع شيوخ القبائل فهي خاصة بالأمينو كال .

2 -آلة الإمزاد:

أ-التعريف :

الإمزاد لغويا تعني الشعر، فهو عبارة عن (كمان) أحادي الوتر صندوقه مستخرج من نبتة (اليقطين) أتالكاس باللغة التارقية من نصف قرع فبعد ان تجف في أشعة الشمس يؤخذ مقطع طوليا وتوضع عليه قطعة من جلد الماعز . ويقطع الصندوق من جهة و أخرى وتر مصنوع من خصلة شعر عنق او ذنب الفرس (أزيو) يحتوي الإمزاد على عينان في وسط الجلد (تيطاوين) وعنق على شكل قوس تابوريت فالإمزاد لا يحتوي على مفاتيح أو عصفير (- و إنما يحتوي على سيورة تسايت) وظيفته شد و ضغط الوتر، حامل وتر الإمزاد تيزوين أو مركب من ساقين من الخشب يظهران على شكل V مقلوب. قوس الإمزاد تاقاني أو هو مصنوع من قطعة خشب اسايير مشدود من الطرفين بخصلة شعرة الفرس أزيو **azyu** فالإمزاد يعزف على ثلاث وضعيات:

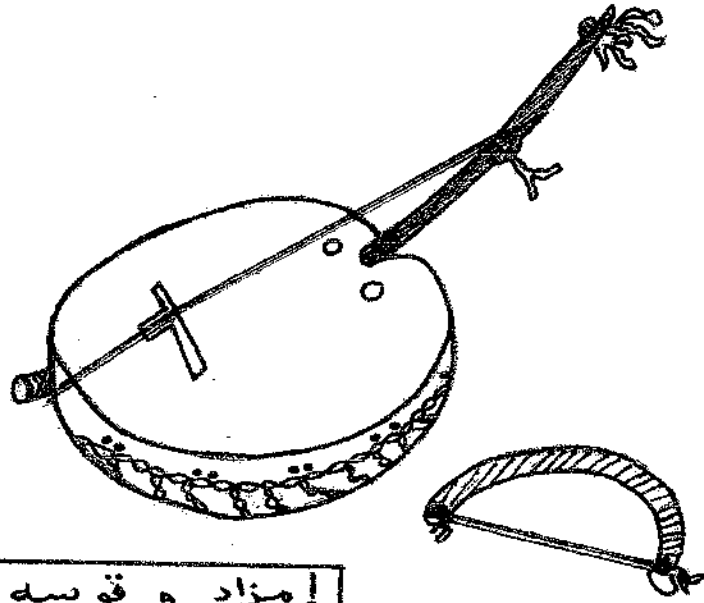
- العزف على الإمزاد يكون إلا في وضعية الجلوس على الأرض والوضعية الأكثر شيوعا في الأهقار هي وضع الإمزاد مائلا على الساقين.
- الوضعية الثانية هي أن تكون الساق اليسرى للعازف مطوية أفقيا على مستوى الأرض.

- الوضعية الثالثة وهي وضع الإمزاد أفقيا على ساقين العازفة المطويين عموديا على الأرض.

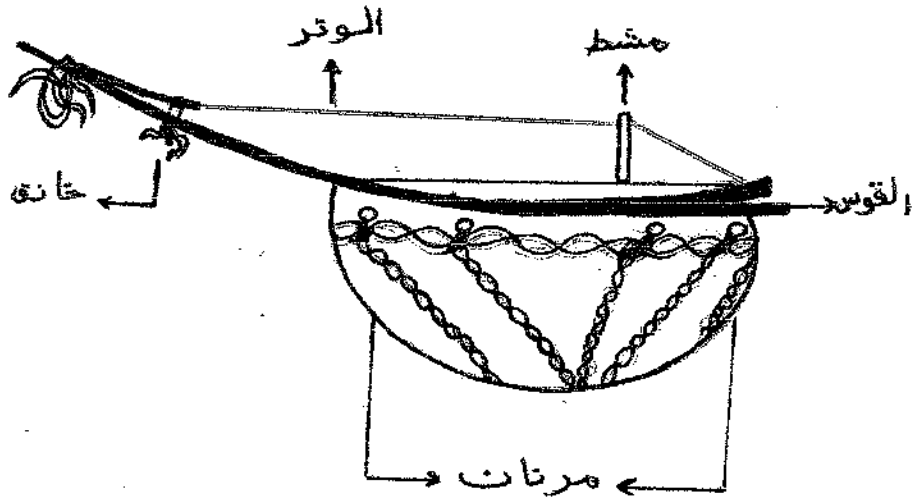
ب- الأشكال المختلفة لموسقى الإمزاد :

- عزف مرفوق بالأشعار المختلفة يغنيها الرجال.

- عزف منفرد.



إمزاد و قوسه



مقطع طولية لآلة الإمزاد

إن شعراء التوارق مجبرين على احترام قواعد محددة في تأليف الأبيات الشعرية، و هذا حسب عدد الأقدام المكونة للنغم سواء تولف على الوزن الطويل، المتوسط ، أو القصير . فالأبيات الشعرية تنتمي إلى أشكال : سيانن **Seinin** هينانا **Heinena** - لالا **Lala** و أليوان **Aliouen** .

وكل هذه الأشكال تتناسب مع كل المواضيع الشعرية ما عدا أليوان يخصص للغناء في حفلات الزفاف فقط، فهناك أشكال أخرى إلا أن عزفها بدأ يقل شيء فشيء.

3- مكانة الإمزاد عند التوارق :

لعب الإمزاد دور كبير داخل المجتمع التارقي فشاركهم أفراحهم ، آمالهم و مآسيهم و أفراحهم . فالتارقي شديد التمسك بالإمزاد و شديد التأثر به لدرجة أنه لا يرض أن يقطع عليه احد متعة الاستمتاع للإمزاد فهو يغوص عند سماع انغامه في بحور من التأمل و التفكير " فحينما ينطق الإمزاد يقل الكلام، يدنو البعيد و يسبح التارقي في بحور من النشوة و التأمل"¹. و التارقي لا يتماسك حين يسمع إمزادا فيبدأ في قرض الشعر أو يزجج شعرا في الحين. و لشدة إرتباط التوارق بإمزاج قال أحدهم : " اليوم الذي أموت فيه لا بد أن تدفنوني في قطعة بيضاء ناصعة من الكتان مثل بياض القمر و صدقوا عني ثلاث أغنيات معروفة بالإمزاد و الفاتحة"².
ومن هنا تتضح مكانة هذه الآلة ومن المهمات التي كانت مخولة لها:
- تشجيع الرجال قبل أي معركة و في جميع الحالات الخطيرة.
- تشريف وتكريم الأبطال.

1- Andre simon ,les traditions des touaregs ed paris 1984,p133

2- Philippe Gabi les touaregs,traditions et cotumes ed payot,1981p93

- تذكير رجال اموهاغ الذين هم على سفر أو أماكن الرعي بطيب و عذوبة الحياة في مضارب البدو، الإمزاد هي آلة باهرة وذات هيئة شاركت ولازالت تشارك في التظاهرات و الأحداث الكبرى للحياة الجماعية

4- الإمزاد والحروب

لعب الإمزاد دورا كبيرا في تقوية الشعلة الحماسية لدى المحاربين ، فحينما تعزف ألحان الحرب لا يتردد احد عن ساحة الوغى ، و إن عاد المحاربين ظافرين سحت عليهم النساء بأنغام الإمزاد و أشعار تشيد بالبطولة و الشجاعة و تخلد يوم الانتصار و هذه الأبيات أخذناها من فم أحد حفظة الشعر عن تروي معركة " تينيسا " 1902 :

هوندي أهلواغ أدنكة تينيسا عندما انطلقنا إلى تينيسا
أسنكه مسره أوداد إزران نسغدد و نحن في طريقنا على المعركة
نوتريافل توريفن نسغدد نوتريافل تزداد سرعة الجمال نحو ساحة المعركة
تكنه أدروس أصغى ترام سوف ابقى مع الجماعة مهما إشتد وطيس الحرب
تاغة نتفوس ورد سيكتهم ساحة الوغى تبقى من اهتماماتي
أما الأسماء التي تطلق على أنواع الأنغام فتؤخذ عادة من أسماء الرجال الذين الفت من اجلهم، أو اسم القبيلة التي تعرف بعزفها.

و الذي من الضروري الإشارة إليه هنا وإن المرأة تمتنع عن عزف أي نغم به قبيلة كانت لها ضغينة مع قبيلتها، و إن أخطأت و فعلت ذلك و سمعها الرجل غضب و يصل به حتى إلى تكسير إمزادها و هذا دليل آخر للدور الهام لآلة الإمزاد.

1- معركة تينيسا 1902: هذه المعركة ضد المستعمر شرك فيها التوارق أهل توات معا وانتصر العدو فيها

و من أشهر عازفات إمزاد السيدة العظيمة التي يفتخر بها كل التوارق السيدة
" داسين " ¹ و هناك سيدة أخرى اسمها " أوتا " ²

و قد مزج التوارق بين عذوبة الموسيقى و الأشعار و ساحة القتال.
و هد الأبيات للشاعر " أمدار اق أمور " تشهد على ذلك ³ :

إنك ذاهب لتغزو و قد غزاك الحزن

غياب الإمزاد هو سبب ألمك

ما أجمل داسين و ما أعذب إمزادها

سنبحت عنها لو نحيط بها، آخاموك معنا في الغزو

إذا لم أصبح فريسة للطيور

قريبا سأهني حزنك

اختصت النساء بالعزف على الإمزاد لإن المرأة التي بادرت بصنع الآلة و من ثم اختصت
بها، المجتمع التارقي يتميز بتقسيم الوظائف فلكل جنس وظيفته فليس هناك تداخل في
الأدوار، فكان من نصيب النساء العزف على الإمزاد لطبيعتهن الحساسة.
خروج الرجل للرعي، التجارة، الحرب أو الغزو وجدت المرأة في إمزاد الويس و الرفيق
الذي يخفف عنها وحدتها ووحشتها ويرى ان تنهنا لما جاءت الى الأهقار كانت تحمل
معها إمزاد و من هنا ارتبط بالنساء والنبيلات منهن.

1- داسين : أيت الهمة الخت الكرى لأحمراك اغ الهمة أحد حكام كل غلا أهم قبيلة نبيلة بالهقار إنها احموك
باي آخر أمين عقال الهقار من 1950 إلى 1975 تاريخ وفاته. كانت لسيدة بارعة الجمال تجيد العزف
على آلة إمزاد و يقال عنها انه اقل هم الرجال بالهقار الذين يتمتعون بحكمة داسين .

2- أوتا: ابنة أب اغ احمد و تينست وحسب الشهود كانت من أبرع عازفات على إمزاد و التند الوحيد لداسين

3-- أحد حفظة الشعر بالمنطقة

5- العادات المرتبطة بالإمزاد :

و من العادات المعروفة عندما تتم المرأة التارقية من صنع الإمزاد تذبح له شاه وهذا لطرد الأرواح الشريرة منه ويقوم بدوره أحسن دور في شفاء الناس وفي تزويج النساء العوانس وجلب المطر بحيث كان ذات يوم يعزف تبركا بالنصر و العزف على الامزاد يقتصر على النساء فقط ولكن ليس كل النساء بل النبيلات منهن وحسب الأسطورة فالإمزاد آلة نبيلة وحسب الأسطورة أن عندما دخلت تين هنان بلاد التوارق كانت تحمل معها امزادا .

لدى المجتمع التارقي احترام لعازفات الإمزاد لاحتلالهن مكانة خاصة داخل المجتمع. فإذا كان لأحدهم صديقة سواء شابة أو امرأة متقدمة في السن عازفة ماهرة على آلة الإمزاد يهديها كلما ذبح ناقة أو عترة أضلع الشاة و تقدم لهل مرشوقة في الرمح الذي يغرس في مدخل الخيمة ، وتقوم المرأة بتوزيع الأضلع على الصديقات متباهية قائلة: " أنظر ن أنا أجيد العزف على إمزاد لدا يهدوني الأضلع ¹ وإن دبح و لم يهديها الأضلع قالت فيه هجاءا.

1- Charles de Foucauld Poesie touaregs- ed ,livre d'or,1908 page 74

3- تازامارت:

تازامات قصبه صغيرة أشبه بالناي طولها 20 سم بها أربعة ثقوب يعزف عليها احد الرجال بالنفخ ، والنغمات التي تصدرها هذه الآلة خاصة بالتوارق .
عازفين الأهقار يميزون بين نوعين من تازامارت وهذا حسب المواد المستعملة في صنعها :

1- نوع صنع من الحطب (tan -tekiwit) .

2- نوع آخر صنع من المعدن (tan -tezuli) .

النوع الأول مصنوع من جذور شجرة تامات (tamat) acacia seyal وهذا بعد ان تخضع إلى التسخين على النار وتجوف من الوسط .

النوع الثاني مصنوع من المعدن وهي المفضلة لأنها سهلة الصنع وأقل انكسارا من الأولى وتصنع من أي أنبوب من حديد او من نحاس او معدن آخر وقد تكون مزينة بسيوره lanières ملونة .النوتات التي تحدثها هذه الثقوب بالتدرج هي على النحو

التالي : do- re -sol-La دو- ري - صول- لا

يعتقد ان هذه الآلة من أصل عربي وهذا حسب بعض الرويات هذه الآلة كانت خاصة بالرعاة ثم انتشرت إلى فئات أخرى في مجتمع التوارق.

أنواع العزف :

-عزف منفرد

- عزف مرفوق بتصفيق اليدين

- عزف مصحوب بغناء الرجال فتزمارت هي آلة المنعزلين وهي خاصة بالرجال فقط وهي خاصة لقبيلة الإمراد او الرعاة الكبار لأهم رعاة .

4-تيندي:

التيندي آلة إيقاع عبارة عن مهراس أو هاوون مربوط على فوهته جلد الماعز يستعمل فيها قضبان من الخشب لحبك وشد الطبل مثبتان بجبل ملتف حول الجزء العلوي للمهراس وتكون القضبان متوازية أفقياً تجلس على التندي امرأتان بحركات متقنة من الجهتين مثل الأرجوحة ويضرب على التندي بسطح الأصابع والكف .

عند ممارسة التيندي يمكن ان نلاحظ :

عازف منفرد: (soliste).

جوق : (choeur).

طبل (tambour).

تصفيق اليدين: (battement de mains).

وهذه الآلة بفتة النساء جميعا وهي آلة دخيلة على المجتمع التارقي.

4-الساج :

قرقابو قطعتان من المعدن يمسكهما الراقص بيديه ويضربهما الراقص على بعضهما بعض فيصدران صوتا يناسب إيقاع الراقص يظهران على شكل صنج مزدوج - double cymbale طوله حوالي 30 سم و قطره حوالي 10 سم .وتختلف هذه المقاييس من آلة انتشارا في كل الصحراء وهي من أصل سوداني كما تستعمل في رقصة (ديراني) dirani ويطلق عليها إسم (أسكاوكون) iseqquew quawen في لهجة التوارق .وهذه الآلة خاصة بفتة (الإكالان) ولكن أصبحت الآن شائعة في إيقاعات مختلفة سواء في التل أو في الصحراء .

هذه الآلة خاصة بالإكالان العبيد اما فتة الإنادن الحرفيين فليس لهم آلة خاصة بهم .

من خلال هذا المسح للآلات والموسيقية، فلكل فئة اجتماعية لها آلتها الخاصة بها حسب النسب والمكانة ومن هنا جاء ارتباط الفنون التقليدية الزمانية منها و المكانية بالواقع الاجتماعي و ارتبطت به و بسلوكاته أفراده و تقاليده و عاداته ، تحاكي الأسلاف و نقلت التراث نقلا جامدا دون تغيير و تطوير لخدمة المجتمع التارقي و الحفاظ على وحدته و كيانه و استمراره، هذه الفنون الرمزية التي تعتبر روح جماعية و تضامنة، بحيث ربطت الإنسان و الطبيعة، و الإنسان و المجتمع معا.

إن الممارسات الثقافية لدى توارق الأهقار انعكاس وامتداد للواقع والحياة الاجتماعية لهم و يظهر ذلك جليا في اللباس. تساهم هذه الممارسات في استمرار الثقافة واستقرارها بحيث قد تعتبر تلخيصا للنشاط الخاص بالتعبير عن القيم الاجتماعية السائدة و على ما يتصل بهذه القيم من ثبات أو تغير أيضا و تحقيق مصداقية النظام الاجتماعي المبني على الطقوس و المعتقدات و يتجسد ذلك من خلال الاحتفالات الوطنية و المناسبات الدينية و تساهم أيضا في تكامل المجتمع بحيث يعتبر الرقص و الموسيقى لدى توارق الأهقار وسيلة مناسبة لتجميع الناس من أجل تحقيق هدف اجتماعي و ثقافي و تعتبر أيضا تمثيلا رمزيا تلك الرمزية العميقة المرتبطة بالماضي الإنساني و خاصة التواصل و التخاطب سواء من خلال المكون الأساسي في الموسيقى هو الصوت كرقصة تزانغريهت أو من خلال الآلات كالإمزاد.

هذه الثقافة جعلت من التوارق وحدة اجتماعية و ثقافية مبنية على التعاون المتبادل بحيث يعتبر الفرد طرفا معزولا و يفقد قيمته و مكانته إذا كان خارج هذا الفضاء المبني على الأساطير .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الخاتمة

إن النتائج التي توصلنا إليها من خلال ما سبق من وصف و تحليل و تفسير هذه النتائج تعرض لنا بوضوح مواقع الأسطورة و دورها و أهميتها ووظائفها كما وضحت لنا العلاقة الجدلية بين الأسطورة و المجتمع من حاجات المجتمع نفسه إلى طرق فعالة بالنسبة لوضع الفرد ضمن الجماعة و علاقته معها.

فما هي إلا وسيلة من وسائل صراع الإنسان مع المحيط الطبيعي و الاجتماعي و التكيف معه من أجل بقاءه و استمراره في الحياة. لذلك خلق الرجل التارقي صورة أقرب إلى الطبيعة منها إلى الصورة الواقعية أي الصورة تنبثق من المحيط الاجتماعي الذي يعيش فيه حتى يتقبلها هذا المجتمع.

كما أدى انعزال المنطقة الجغرافية والظروف الطبيعية القاسية إلى ديمومة التراكبات الاجتماعية و الثقافية الرمزية التي أفرزتها تلك العلاقات والتي كونت المخيال الجماعي، فعدم تفكيك البنية الاجتماعية هي التي كانت أساس استمرارية الأسطورة كما أن التغيير الذي طرأ على البنية التحتية في بداية السبعينات لم يقابله تغير على مستوى الأذهان.

فالفترة ما قبل وبعد الاستعمار بمنطقة الأهقار ارتبطت بأهمية العلاقات العائلية التي كانت تسيطر على ديناميكية النظام القبلي و لم يستطع الاستعمار تفكيك عناصر وأسس النظام القبلي من طرف الإدارة الفرنسية. فالنظام الاجتماعي لتوارق الأهقار يمثل الأرضية الثقافية والأخلاقية الأولية التي يبني على أساسها تفاعل العلاقات الجماعية المبنية على عامل العصبية فلما دخل الاستعمار للمنطقة اعتمد التوارق من أجل تحقيق وجود ذاتهم والحفاظ على استمرار هويتهم على الموروث الثقافي والاجتماعي الذي أعطى للأمينوكال الرئيس الشرعي المكانة الاجتماعية، و ظهرت لنا جليا بأنها وسيلة للتعبير عن تلك الحاجات الإنسانية التي تظهر من خلال استخدامها في الحياة اليومية و من هنا كانت الأسطورة و ما تزال عنصرا مهما من العناصر المعنوية التي تعبر عن رغبات أفراد

كانت الأسطورة و ما تزال عنصرا مهما من العناصر المعنوية التي تعبر عن رغبات أفراد هذا المجتمع.

لاحظنا أيضا كيف ترتبط الأسطورة بعلاقة دائمة و مستمرة بالمحيط الاجتماعي و النفسي لطوارق الآهقار. و لهذا السبب لا نستطيع فهم الأسطورة ووظائفها و أبعادها إلا بوصفها في سياقها الاجتماعي و الثقافي و النفسي الذي تحيط بهؤلاء الرجال الملتزمين، و المؤشرات المختلفة التي دفعت بهم إلى إنتاج هذه الأساطير لأنها تتأثر بها و تؤثر فيها.

لاحظنا كيف استعمل التوارق الرموز التي تعكس مطالب الجماعة التي تعيش بينها و التي تطلب منه الخدمة و المساعدة لتمجيد الأجداد و كيف أصبحت آلة (الإمزاد) تشكل الجدل الأعلى للقبيلة تقوم بوظيفة تنظيم الجماعة و حمايتها من الجوع و القحط و كيف تعطي أنعام الإمزاد القوة و الخير و البركة و تدفع عنهم الأذى و تجلبهم السرور و السعادة و تساعدهم للقيام بأدوارهم الاجتماعية و تساعد الأطباء في شفاء مرضاهم. كما تلعب الأسطورة لدى مجتمع الطوايق الآهقار دورا مهما في تنشئة الفرد و بروز شخصيته بما تعكسه و تفرزه من انسجام و التحام و تنتقل من جيل إلى جيل بهدف تهذيب الأطفال و توجيههم كما هو الشأن في أسطورة تن هنان التي تقوم على التوجيه الاجتماعي والثقافي والسياسي و ولاء الخادمة للملكة هذه الأسطورة التي تعرض أفكارا سياسية لتصوير الملكة البطلة و تعرض قيم سياسية و اجتماعية على شكل رموز لها دورها و فعاليتها . كما تلعب دورا تثقيفيا تربويا حيث تقوم مقام اتصالات يختلف أنواعها فهي وسيلة اتصال و ادات النشأة.

فليزال حقل تخيال جماعات مجتمع التوارق تسيطر عليه ثقافة التقاليد والعادات وطبيعة مجموع التطورات والمعاني مبنية على القداسة الشاملة والمطلقة التي تملئها الأسطورة والتي جعلت من النظام الاجتماعي مثالا وترفض كل محاولات النقد وجميع إشكال التغيير والتجديد ويقول في هذا الشأن: Max weber.

" وتصبح جميع المعاني والقيم تتمتع بالشمولية المطلقة داخل الفضاء الاجتماعي حتى يتمكن الأفراد والجماعات التقاسم والإشراك في لإستعاب نفس الرأسمال الرمزي ونفس القواعد التي تنظم سلوكياتهم وتطبع رؤيتهم للمستقبل.¹"

إن الأسطورة الشافهية تدخل ضمن الكل الرمزي والنموذجي الذي ينبغي الافتخار به كما تؤكد الوضعية المثالية لشخصية المرأة، حتى أصبحت موضوع تقديس وتم ربطها بالعديد من المواقف البطولية.

إن النص الأسطوري رتب الحادثة التاريخية ضمن إطار مقدس بأسلوب بسيط وهذا لتقريب الفهم و من أجل الرغبة في إعادة بناء صورة لنفس نموذج المجتمع التقليدي أو مقاومة للنموذج المؤسساتي، هيمنة البعد الوظيفي للذاكرة الجماعية في بناء نسق التصورات وفي إنتاج أسلوب السلوكيات والممارسات.

من أجل إعادة إنتاج هويتها وتحقيق حركيتها تعتمد بكل مستمر على ربط وجودها لمرجعية قديمة من خلال توظيف عنصر الأسطورة بكل ما تحمله من تراكمات رمزية إن تصورات المجتمع التارقي لا تحمل في ذاتها الصراع والتنافس إنها علاقة ميكانيكية تتحكم فيه مواقف وممارسات الشخصية الرمزية الأسطورية.

كما تلعب الأسطورة وظيفة ترفيهية فالرقص و الغناء و الموسيقى تستطيع خلق أجواء عاطفية و فكرية في أوقات ممارسات المراسيم المختلفة الطقسية منها و الدينية فهي تقوم

1-Max weber le savoir et le politique ed.busiére. p108

بوظيفة روحية تتمثل في تقوية ترابطهم و تحقيق التضامن الاجتماعي و تزويد الأهالي التوارق بالقيم و المفاهيم الضرورية للتفاهم و وضعهم بذلك مبادئ روحية و أخلاقية و تشكل طوطم القبيلة و تعبر الأسطورة بذلك اعتقادا لدى مجتمع طوارق الأهقار هذا ما يفسر تفكيرهم شموليا تجيب عن تساؤلات لأهل التوارق و تعكس بصورة خاصة حقيقة الواقع الوجودي و الاجتماعي الذي يعيش فيه رجل الأهقار.

فهي بذلك تمثل جانبا من تاريخ هؤلاء المثلثين و تفسر عناصر حضاريهم و نظامهم الاقتصادي في إطار أسطوري كما أنها تعكس أيضا معتقدات الرجل الأزرق بصورة واضحة و تربط بين العالم و الحياة الواقعية التي يعيشها. و لاحظنا كيف ارتبطت الأساطير بدور الأبطال الذين ينقدون البشرية و خاصة عندما تكون الشخصية البطلة امرأة كما هو الشأن يحدد مجتمع التوارق .

إن بنية التراكمات الثقافية و ذهنية توارق الأهقار القائمة على مبدأ العصبية والتي لم تستطع الإدارة الفرنسية تفكيكها ، و عدم تفكيك نمط الملكية الجماعية للمراعي الذي سيمتد شرعيته من ثقافة القبلية وكذلك التغيرات التي عرفها المجتمع الجزائري في الفترة الاستقلال لم تكن تمثل مشروع اجتماعي ثقافي مما أدى إلى احتفاظ بهذا المجتمع القبلي في صورته المغلقة ضمن استمرارية سيطرة الثقافة العصبية التي تتحكم في نظام العلاقات التقليدية القبلية . إن الثقافة العصبية التي تفرزها عناصر تفاعل العلاقات الأسرية تجعل من القبلية الهيكل الاجتماعي الأمثل والمرجعي الذي يتميز بالوحدة ما بين أفرادها و الإنسجامية في تفاعل علاقته.

إن نظام تفاعل العلاقات داخل حدود القبلية تتحكم فيه ثقافة السلوك الجماعي المبني على التعاون المتبادل الذي يهدف إلى الحفاظ على الوحدة الاجتماعية للقبلية.

فهي بذلك تمثل جانبا من تاريخ هؤلاء الملتهمين و تفسر عناصر حضارتهم و نظامهم الاقتصادي كما أنها تعكس أيضا معتقدات الرجل الأزرق بصورة واضحة و تربط بين العالم و الحياة الواقعية التي يعيشها.

كل هذا يتم حصره ضمن دائرة ثقافية ورمزية موحدة أساسها البعد المرجعي و على الشمولية الاجتماعية القائمة على خطية الاتجاه و ثبات البنية .

إن هذا الاعتقاد هو الذي حقق مسالة استمرارية الأسطورة و ارتسمت عبر مجال المخيال الجماعي للأفراد خاصة التنمية الأسطورية المبنية على شروط القوى الغيبية الراضية لإرادة التدخل الإنساني كطرف فاعل قادر على التأثير على عناصر محيطه العام، فغياب الماضي يؤدي إلى فقدان المجتمع لمصدر ومؤشر تحقيق هويته و انتمائه الاجتماعي كما أنه يؤدي إلى فقدان عامل التواصل و الاتصال.

ان توليد الأسطورة و تشكيلها و إعادة صياغتها عملية جمالية تهدف للبحث عن عالم فسيح جميل، لم تقتله بعد الشعارات الإيديولوجية، اذ ان كثيرا من الرموز التراثية قادرة على الاستمرار في نسق الواقع المعاصر، و تغييره بفعل بعدها التاريخي و دلالة هذا البعد على المستوى الإنساني و الاجتماعي و السياسي ، فبدون إدخال عليه عامل التغيير و التحول يعطي للمجتمع الثبات فيرفض الأفراد محاولة تجديد مادته التركيبية و يحتفظ على ديمومة كل ما هو موروث انطلاقا من هذا الاستنتاج يمكن أن نتساءل عن استمرارية وديمومة الأسطورة و استحضر التخزين الدائم لنفس التراكمات الثقافية الرمزية التي مر بها المجتمع التارقي في الماضي دون إدخال عليها عامل التغيير وهذا اللجوء إلى الأسطورة و استحضر لبطولة الغائب و استدعاء البطل الأسطوري و التاريخي ليكون المفدي و المخلص، و الشعلة التي تنير لنا طريقا مظلمًا.

فهل معنى هذا أن الأسطورة تشكل نوعا من المقاومة السياسية الاجتماعية و الثقافية ؟
فما هي أشكال هذه المقاومة؟ و أين تتجلى و على أي شكل تظهر؟ هل هي خفية أم علنية ؟

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أسطورة تين-هنان :

فوق تل وادي أباليسه ، وعلى بعد 80 كلم من تمراست ، في الزاوية الجنوبية الغربية لكودية الأهقار و على ارتفاع 914 م توجد بناية من الحجر الجاف هي ضريح ملكي يطلق عليه سكان منطقة التوارق اسم " قبر تين هينان " وتين هينان عند التوارق شخصية تاريخية إذ تعتبر السلف الأمومي لكل القبائل النبيلة و الملكة الأولى لمملكة التوارق . وحفظت الأسطورة بأمانة في عادات التوارق . و أكثرها شهرة تروي أن "تين هينان" كانت مسلمة تركت التايفاللت ، وهي منطقة في جنوب الأطلس المغربي أين ولدت متجهة نحو الأهقار .

"عندما جاءت تين هينان من التايفاللت إلى الأهقار مصحوبة بخادمتها الأمينة تاكامات و مجموعة من العبيد ، كانت ممتطية ناقة بيضاء، أخذت من بلاد البرابر بكمية من الثمار و الذرى البيضاء إلا أن الطريق إلى الأهقار طويل بحيث مرت الأيام و لم تظهر نقطة الوصول، فبدأ الطعام ينقص و اشتد الجوع حتى أصبحت حياة القافلة مهددة ، وفجأة توقفت القافلة ورفعت الملكة عينها الى السماء ودعت ربها النجاة وبعد لحظة شاهدت الملكة كميات صغيرة من الحبوب التي اخترتها النمل بكل عناء و شقاء فطلبت من الخادمة تاكامات بمساعدة العبيد بجمع هذه الحبوب و قدمت ما التقطته إلى سيدتها التي لم تنزل من على ظهر ناقته كما يليق بمكانتها ، وما التقطوه سمح للمجموعة متابعة الطريق و الوصول إلى الأهقار بأمان ."

- أسطورة اللثام

يرددون التوارق أساطير متنوعة حول الشاش أو اللثام ولكن أشهرها أن طائفة من لمتونه خرجوا مغيرين على عدوهم فحلفهم العدو إلى بيوتهم ولم يكن بها إلا المشايخ والصبيان و النساء ، فلما تحقق المشايخ إنه العدو أمروا النساء أن يلبسن ثياب الرجال و يتلثمنن ويضيقنه حتى لا يعرفن ، ويلبسن السلاح ففعلن ذلك وتقدم المشايخ

و الصبيان أمامهم و استدار النساء بالبيوت فلما اشرف العدو رأى جمعا عظيما فظنه رجالا فقال : هؤلاء عند حرمهم يقاتلون عنهن قتال الموت ، و الرأي أن نسوق النعم و نمضي ، فإن اتبعونا قاتلناهم خارجا عن حرمتهم فبينما هم في النعم من المرعى إذ أتيا رجال الحي فبقي العدو بينهم و بين النساء فقاتلوا من العدو فأكثروا ، وكان من قتل النساء أكثر وكانت تتوسطهن حفيدات تين هنان يعزفن الإمزاد فأحداهن لوح بسيفها وأسقطت عددا كبيرا من العدو و منذ ذلك الوقت جعلوا اللثام سنة يلزمونه فلا يعرف الشيخ من الشباب فلزموا اللثام ————— بركا به .

-أسطورة جبل اهرهي-

لقد كان جبل اهرهي متواجد بواد أمدد(أبالسة) ولكن عندما قررت مجموعة جبال توين الرحيل مهاجرة ناحية مالي أصابت الغيرة الجبل اهرهي(اسم رجل) فتنقل إلى مكان تواجد جبال توين (بسيلت)(اسم يطلق على النساء) لمنعها من السفر، و لا يزال مكان تواجد جبل اهرهي الأصلي بأبلسة ويسمى تقنت نهرهي

-أسطورة جبل إيلامان-

تقول الأسطورة أن جبل أيلامان (وهو اسم يطلق على رجال الطوارق) قد تصارع مع جبل أبحر (وهو اسم يطلق على الرجال) حول الجبل(طهارة وبها اعلى قمة جبلية بالجزائر) ويطلق هذا الاسم على النساء) حول من يفوز بها فدار نزال بين الجبلين فضرب أيلامان جبل أبحر بالرمح فرد عليه الجبل أبحر و ضربه بالسيف و لهذا نجد أن هذا الأخير مازال يجري به ماء من وسطه بعدما كان في الماضي يترفد بما ففاز جبل أبحر بالجبل(المرأة الرمن) تمات و رحل جبل أيلامان الي جبل طهارة (المرأة الرمن) و مازال مكان تواجد جبل أيلامان ويدعى(تقت نيلا مان).

اسطورة ادريان

قديمًا ومنذ زمن بعيد جدا، قبل وصول الطوارق إلى الأهقار، كانت شعوبا تعيش على هذه الأرض. ويروى أنه كان يعيش على هذه الأرض في ذلك الزمن رجل نبيل وغني جدا يسمى أما ملن، كان يملك عددا كبيرا من العبيد، كان يسخرهم في حراسة قطيعه الموزع في جميع أرجاء الأهقار.

إلى جانب هذا كان يملك موهبة الرسم، ولا أحد يعرف كيف تعلم هذا الفن، حيث كان ينقش أشكال كل الحيوانات التي يراها حوله في أرجاء الصحراء و يرسم حتى الرجال، باختياره عادة الأحجار الجميلة والملساء لإنجاز رساماته، كما كان يستعمل الألوان في بعض الأحيان، وبهذا كان عميد الرسامين بلا منازع. كان لأما ملن ابن أخت يسمى إلياس، طفل ذكي وشجاع له مكانة خاصة في قلب خاله، حيث كان يأخذه في أغلب تنقلاته، ولكثرة الاحتكاك بخاله، تعلم إلياس فن الرسم والنقش، مما جعل أما ملن تغمره السعادة والراحة لنباهة إلياس وسرعته في تعلم هذا الفن وإحرازه تقدما ملحوظا.

وبمرور الزمن نضج إلياس وتأكدت موهبته وأظهر مرونة عالية جعلت منه منافسا عنيدا لخاله، مما جعل كل الناس يتحدثون عنه ويمجدون شخصه وعمله في مجال النقش والرسم. وإضافة إلى هذه الموهبة يقال أنه كان يملك قوة خارقة، ويروى عنه الحادثة التالية:

ذات مرة، كان إلياس منهمكا في القيام بتمارين فنية بالنقش على صخور جبل تفر كيت، بالقرب من التفداست، وهو في درجة من الإلهام وإذا بصوت مزعج للقطيع يفقده التركيز، وبنظرة جانبية لاحظ صغار الماعز ترضع أمهاتها، نتيجة تهاون العبيد في حراسة القطيع، فانتابه غضب شديد، وبضربة صائبة بسيفه قطع جزءا من قمة جبل تفر كيت، فوضع إياها في وسط مجرى وادي آدنك، وبذلك فصل بين الماعز وصغارها، مما سمح له بمتابعة التمرين الفني في راحة تامة.

إلى جانب هذه الميزة، كانت له صفات إنسانية نبيلة، عقل نير وقلب طيب، وكل هذه الصفات جعلت أماملن يسمع اسم إلياس في كل مكان يقصده، فبدأت الغيرة تسيطر عليه وتزداد حدة خاصة عند مشاهدته لرسومات ابن أخته.

في تلك الحقبة الزمنية لم تكن للناس قدرة التحكم في المشاعر، مما جعل أماملن يرغب في موت هذا الفنان الباسل.

فأراد قتله بطريقة غير مباشرة تبعد عنه كل الشبهات، ولا تلتطخ وتشوه صورته أمام شعبه، وبالتالي فكر في إيجاد وسيلة تخلصه من هذا الخصم العنيد.

فاختار أماملن أحد العبيد، شاب قوي البنية كثير التحمل لكنه ينقصه الذكاء، ينفذ الأوامر بطاعة عمياء.

— قال أماملن للعبد: (ستذهب لتقود قطيعي من الإبل إلى ذلك الوادي الذي مررنا بقربه ذات مرة، والموجود بجوار ذلك الجبل الأسود أين اصطدت غزالة، التي لا تزال محافظا على قرنيها).

— فرد العبد: ولكن ذلك الجبل بعيد جدا ويقع في الجهة الجنوبية، خارج نطاق أراضينا.

— قال أماملن: أعرف ذلك، لكن هذه رغبتني، وإني أعلم أن هذه المناطق الشاسعة فيها مراعي ممتازة.

— قال العبد: أجل سيدي، سيكون ما تريد.

— قال أماملن: لا تذهب وحدك هذه المرة، سيرافقك إلياس.

وبصوت هادئ روى أماملن للعبد مضمون مشروعه، وبإتهام شرح تفاصيل العملية تسمر العبد في مكانه محتارا، والعينان جاحظتين، ولم يعود إلى أرض الواقع إلا بصفحة مفاجئة .

— انصرف قال أماملن، على أن يكون كل شيء مهياً مع طلوع الشمس ، سأخبر إلياس.

في اليوم الموالي، توجهت الإبل نحو الجنوب، إلياس والعبد في المقدمة مسلحين بالسيوف، وعلى جانبي الإبل تتدلى قربتين.

حين غادرت القافلة آخر جبل بالأهقار والمسالك المألوفة، بدأ مشكل الماء يطرح بجدّة، وبما أن العبد تزود بكل المعلومات اللازمة من سيده، كان متيقنا من وجود البئر قبل أن تفرغ القرب. أما إلياس كان يتأسف لمغادرته جبال الأهقار بتوجهه نحو المجهول، ومع ذلك وضع ثقته في العبد الذي له معرفة ودراية بالمسالك الصحراوية، فسار إلياس فوق إبله مغموماً، محطماً من شدة الضجر وسط هذه القضاة الشاسعة التي ليس لها أفق.

ذات مساء بان من بعيد جبلاً معزولاً فوق الرق.

قال العبد لإلياس: إلى هناك نحن ذاهبان.

في اليوم الموالي، وفي حدود منتصف النهار شاهد إلياس من بعيد مرعى شاسع حسب وصف خاله، ممتد على مرأى العين باتجاه الجنوب، كالروضة الفسيحة، تكاد تجزم أنه بحرا أخضر، في ممر الإبل آلاف العصافير تطير. — سنتوقف في هذا المكان ليرعى القطيع قال العبد مخاطباً إلياس، إنها رغبة خالك. فقاما بنصب المخيم في أسفل الجبل الأسود، مقابل المساحة الأفقية للصحراء حسب تعليمات أماملن.

كان لا يزال الوقت مبكراً، مع ذلك الحرارة غير مطابقة، وليس هناك وجه لمقارنتها بحرارة الأهقار، ولشغوره بالعطش الشديد قال إلياس للعبد:

— اذهب وابحث عن الماء، لأن القرب فارغة.

قال العبد، لا يوجد ماء في هذا البلد الملعون، لقد تركنا آخر بئر وراءنا! — وحسرتاه لمسافة سبعة أيام.

— ولماذا لم تملأ القرب بالبئر الأخير الذي مررنا به؟

— لم أفكر في ذلك... ولم تأمرني بالقيام بهذه المهمة.

— عد إذا إلى ذلك البئر واحضر الماء.

— ردا العبد متظاهراً بالبكاء، كيف أستطيع، وقطيعنا منهك، لا بد أن يرعى عدة أيام

قبل مباشرة السفر، ولا يمكنني الوصول إلى ذلك البئر وأعود سالماً.

أقنع إلياس نفسه بأن ما يقوله العبد صحيحا، ومع ذلك راودته بعض الشكوك، فخطر بباله، ربما هناك مكيدة مدبرة وهو الضحية، فعوض أن يغضب فكر جيدا وبدأ يلاحظ.

لقد مر يومان على وصولنا إلى هذا المرعى، يومان طويلان تحت شمس تكاد تجعل الصخور والرمل يغليان، فاحترار لمشاهدة العبد في حالة طبيعية، ذاهبا إلى المرعى وعائدا تحت هذه الشمس المحرقة، ويقوم بعمله اليومي في ظروف عادية، في حين كان إلياس منهارا، غير قادر على القيام بخطوة إلا ببذل جهد كبير.

بحلول الليل، استسلم العبد إلى النعاس، بينما إلياس سهر باحثا عن وسيلة لفك هذا اللغز، وبعد مدة من التفكير أخذ نعل العبد ودهنه بالسمن (الزبدة) بوضع طبقة رقيقة على أسفله وأعادته إلى مكانه، تمدد على فراشه متظاهرا وكأنه نائما منذ مدة، يراقب ويلاحظ حركات العبد.

قبل طلوع الفجر ومع صمت المخيم، نهض العبد وشرع في القفز من صخرة إلى أخرى، فصعد الجبل واحتفى.

وبطلوع الخيوط الأولى لأشعة الشمس ذهب إلياس بدوره نحو الجبل، متبعا البصمات التي خلفتها خطوات العبد على الصخور، حيث كان هذا الأخير يضع قدميه على الحجارة متفاديا الرمال، فاكتشف إلياس الخطة الجهنمية المستعملة، وسبب انعدام وجود آثار تنقلات العبد خلال اليومين السابقين، هذه المرة كانت غير مثلتها السابقة، من شدة الإرهاق والعطش كان إلياس يرتاح من فترة إلى أخرى لأن المسلك كان طويلا ومتعرجا، ومع ذلك حاول الوصول إلى الهدف في أسرع وقت ممكن حتى لا يفقد الآثار التي خلفها نعل العبد اللامعة تحت أشعة الشمس، فبعد ساعة من السير المتعب، وجد إلياس نفسه أمام غار بين الصخور، في أسفله تلمع مرآة من الماء، فتنفس الصعداء وأروى ظمأه، وفي لحظة وجيزة بدأ يشعر باسترجاع قواه، وعاد مسرعا باتباع نفس المسلك للالتحاق بالمخيم دون أن يتفوه بكلمة عن الاكتشاف، مضت أيام ولم ينتبه العبد لبقاء إلياس على قيد الحياة بدون ماء، كان يطبق كل الأوامر الصادرة عن إلياس دون طرح أي سؤال، يكفيه أنه لم يراه أحد وهو متجها نحو العين ليشرب.

في الأهقار انتاب أماملن قلق شديد، لقد مر شهر والعبد لم يعد بعد، ربما مات إلياس ومات معه الشاهد المزعج، خطر ببال أماملن، إلا أنه أراد التأكد من ذلك ، فأعد العدة واتجه نحو المرعى.

فكانت في استقباله المفاجأة ، فتعصر قلبه غضبا وحقدا لحظة الوصول إلى المخيم، بظهور إلياس مستقل على فراشه، بينما كان العبد عائدا من المرعى بعد أن قام بإحصاء القطيع، فرغم خيبته تحكم أماملن في نفسه كما تحقده الدفين.

— كيف شربت الماء؟ سأل ابن أخته.

— لم أشرب ، أحباب إلياس ، العبد سيؤكد لك قولي.

لا علينا ، استأنف أماملن حديثه، الأهم أن القطيع في حالة جيدة، أشكرك وأهنئك على نجاح المهمة.

لقد جئت لأبقى بعض الوقت هنا مع العبد، أما أنت فستمتطي إبلك وتذهب إلى البئر الموجود على بعد سبعة أيام من هنا في اتجاه الأهقار. هناك تركت مائة ناقه ، ومائة حصان ومائة حمار، ناوهم الماء واملأ المائة قرية المخبأة بجانب البئر بعد تصليحها لأن أغلبها ممزقة ، ثم توجه نحو الأهقار أين سألتحق بك.

طلب إلياس الإذن من خاله ، مفضلا الانطلاق في جنح الظلام الذي يسمح له بملا قربته بالعين دون أن يراه أحد، انطلق والفرحة تغمره لمغادرته هذا المكان الذي كاد أن يموت فيه عطشا، ذهب وهو لا يدري خطة خاله .

بقي أماملن في المرعى رفقة العبد والبهجة بادية على ملامحه ، لأن موت إلياس أصبح وشيكا وشبه مؤكد هذه المرة رغم مهارة ابن أخته وذلك لوجود جماعة من اللصوص متوجهة نحو البئر لسلب القطيع ، يعرف عنهم أنهم غزاة لا رحمة ولا شفقة في قلوبهم ، لا يتركون أحياء أبدا بعد غاراتهم. وسيمكث إلياس بجوار البئر مدة معتبرة لإنجاز العمل المفروض عليه من قبل خاله، وبدون شك سيسقط تحت ضرباتهم القاسية وسيكون مصيره الهلاك ، وهكذا سيحقق أماملن مراده بطعن سيفه في قلب إلياس.

استعجل إلياس سير جملة ، لأنه لاحظ ليلة أمس بالجهة الشرقية نيران موقدة، ولكونه في مناطق بعيدة عن جبال الأهقار أدرك أنه ليس في مأمن ، فاجتمع هذه النيران

أمر مشبوه ، والمحتمل أن هناك غزوة ستشن على الأهقار، وشك في مرور هؤلاء الغزاة صدفة بالقرب من البئر.

شق طريقه نحو البئر بسرعة حيث استغرقت مسيرته مدة ثلاثة أيام فقط ، كان

يسير طول كل الليل بدون توقف، فقام بجمع القطيع وسحب الماء من البئر ليل نهار لارواء الحيوانات وصلح القرب الممزقة وملاها.

بينما هو يتهيأ لاستئناف المسيرة وإذا بمجموعة مسلحة من الفرسان تفاجئته، من خلال حركاتهم أدرك إلياس قصدهم، هؤلاء أعداء ليس في ذلك شك ، بدعوا يحيطون بالقطيع ورغبتهم المؤكدة السلب لا غير.

قفز إلياس من فوق جملة، وامتطى أفضل حصان من بين القطيع ، الأكثر هيجانا واندفاعا وسل سيفه من الغمد واحتفى بدرعه، وانقضى بسرعة فائقة كالشيطان على الفوج الأكثر عددا من الغزاة ، يضرب يمينا وشمالا ، لقد زرع الرعب والهلع وسط الغزاة مما جعلهم يفرون مذعورين كأهم قابلوا جن .

بدون انتظار، دفع إلياس القطيع أمامه في اتجاه الأهقار، حيث ظهرت له في الأفق قممه المائلة إلى الزرقة.

بقطعه مسافة ثلاثة أيام منذ أن غادر البئر، أصبح البلد أكثر وحشية، ومع مرور الوقت بدأت الربوة المنبسطة للرق تترك مكائها لأولى مظاهر الرفاهية إيذانا بدخول نطاق الأهقار. فأصبحت الوديان تتزلق وسط ممرات ضيقة وعميقة ، وسط هذا المشهد المذهل الذي يعلن لإلياس اقتراب موعد الوصول إلى البلد.

فجأة هاجمه فوج هام من اللصوص في منعطف أحد الوديان ، فقام إلياس باستعمال سير القطيع، جاعلا الأحصنة على رأس القطيع في منحدر الوادي ، وهو يصرخ ويصيح ، حتى يرعب الحيوانات ، ناخسا برمحه كل من يتأخر عن المجموعة، فسارت الحيوانات تركز متماسكة كأها فيضان سيل وسط منحدر ضيق، فجعل مهاجميه يفرون لمضايقتهم من قبل الحيوانات الهائجة التي جعلتهم محاصرين بين جانبي منحدر صخري.

مع ذلك لم يشأ المهاجمون ترك هذه الطريدة الجميلة تفلت منهم ، بعدها الهائل من الحيوانات والمحروسة من قبل رجل واحد . فمهما كان هذا الشيطان المارد ، فالحيوانات ستسلب عقابا له على جرأته ، فأسرعوا لتحقيق ذلك قبل فوات الأوان ، بدخول إلياس جبال الأهقار العالية التي لم تحرق من قبل ، فانتظروا حتى تصل الحيوانات وسط إحدى الحفر العميقة المستديرة الجوانب لتمنراست . هنا يركن الوادي ، ويجاذي جبل الأدرار هقاغن ذو القمم المدوخة والمستند على جبل الأدریان حيث جدرانہ بمثابة سد يمنع المرور .

الخمير ، الأحصنة والجمال يسيرون في صفوف متراصة في مجرى الوادي المحاط بالخضرة (اخضرار) ، لمح إلياس المهاجمين وهم يرسمون قوس كبير بطريقة تجعله محاصراً مقابل جبل أدریان ، خلافا لعادتهم كانوا يتقدمون في صمت مقلق (مضجر) ، على الرغم من شجاعته ومكره أحس إلياس بالضياع ، وأن ساعة موته قد حلت لا محالة أمام هذا العدد الهائل من الغزاة ، بالقرب من هذه الجبال التي شهدت مولده والتي يحصي قممها آليا .

هذه المرة ليس بمقدور إلياس إعادة وتكرار انتصار واقعة البئر ، كون هؤلاء الغزاة مصممين على عدم تركه يؤثر عليهم مرة ثانية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
وَالَّذِي يُرِيهِمْ
آيَاتِهِ وَيُخَوِّدُهُمْ
وَالَّذِي يَخْتَارُ
مَنْ يَشَاءُ مِنْ
عِبَادِهِ
وَالَّذِي يَخْتَارُ
مَنْ يَشَاءُ مِنْ
عِبَادِهِ

المصادر و المراجع

- د. صلاح الدين عمر باشا، المدخل لدراسة الجغرافيا البشرية جامعة دمشق 1969
- أشلي مونتاغيو، ترجمة د. محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة الكويت
- نكروف عبد الخالق - الرحالة العرب دار الطليعة بيروت 1977
- محمد فارس العياض - الطوارق شعب الصحراء الكبرى دار الطليعة للنشر 1979
- الدكتور خليل أحمد خليل (مضمون الأسطورة في الفكر العربي) دار الطليعة للطباعة والنشر
الطبعة 3-1986
- الدكتور محمد عبد المغني خان. (الأساطير و الخرافات عند العرب) الطبعة-1981- دار
الحدادة للطباعة و النشر والتوزيع
- الدكتور شوقي عبد الحكيم (الفلكلور و الأساطير العربية) الطبعة الثانية دار ابن خلدون بيروت
- عبد الرحمن ابن خلدون كتاب العبر مؤسسة الأعلمي 1980
- محمد ابن جرير الطبري تاريخ الرسل و الملوك دار المعارف الطبعة الثانية 1987
- ابن منظور لسان العرب دار صادر بيروت
- مبارك الميلي تاريخ الجزائر في القدم و الحديث المؤسسة الوطنية للكتاب
- فراس السواح- الأسطورة والمعنى - منشورات دار علاء الدين-2001
- محمد عجيب - موسوعة اسماير العرب عن الجاهلية ودلائها - دار الفرابي بيروت 1994 ص 97
- محمد السويدي بدو و الطوارق بين الثبات و التغيير دراسة سوسيو-انثروبولوجية المؤسسة الوطنية
للكتاب 1989
- عبد السلام بوشارب أمجاد و أنجاد المؤسسة الوطنية للإتصال والنشر والإشهار-روية 1995
- عاطف وصفي الأنترو بولوجية الإجتماعية 2003
- محمد السويدي - مقدمة في دراسة المجتمع الجزائري - ديوان المطبوعات الجامعية.
- عبد القادر جغلول-الإشكالية التاريخية في علم الإجتماع السياسي عند ابن خلدون دارالحدادة 1987
- فيليب لوكا جون كلود فاتان-جزائر الأنترو بولوجيين-2002
- بوعناني ابراهيم الأسس النقدية للسلطة الجزائري في الجزائر، دار الهدى ط1، 2003
- محمد صابريني، البيئة ومشكلاتها، نشر عالم المعرفة، ط2. 1984
- إدريس خضير - التفكير الإجتماعي الخلدوني - مؤسسة الوطنية للكتاب - 2003
- ابراهيم رماني - الغموض في الشعر العربي الحديث - ديوان المطبوعات الجامعية
- صلاح ابو قلع-الأسطورة- دار حفص تونس 1983 .

- ابو رحان العريف تاريخ الفكر الفلسفي دار الكتاب بيروت 1979 -
- نبيلة إبراهيم - أشكال التعبير في الأدب الشعبي - دار المعارف.
بشير زهدي - مقدمة في الميتولوجيا - عالم المعرفة .
أحمد بدوي تاريخ الفكر السياسي والاجتماعي ،دار الكتاب اللبناني، ط2
-أحمد كمال زكي - الأساطير دراسة حضارية مقارنة بيروت 1979
- أحمد أبو زيد - الرمز و الأسطورة و البناء الاجتماعي - عالم الفكر ع 3 - .
-سعدان الزيتوني ،أمازيغ شمال افريقيا-جار الهدى، ط 1، 1999-
بوزياني الدراجي-القبائل الأمازيغية-الكتاب العربي 2000

"المراجع باللغة الأجنبية"

- **Le père de foucauld**, poesie Touaregs Dialect de l ahaggar .libraire arnest le roux 1930 paris

- **Maurice ben hagera** .six mois chez les touaregs du - Hoggar T.P.A gourdan .1908

- **Marin (A.G.P)** quatre siecles d'histoire marocain du sahara (1504.1902) paris 1923

- **Reygasse (M)** 1950 .fouilles des monuments funéraires de types chouchets en relation avec tombeau de tin-hinan

- **Reygasse** 1950 note numérique a propos du tombeau de tin-Hinan libyca TIII

- **Gash** 1973 témoignages nouveau sur tin-hinan ancêtres légendaire des touaregs de l' Haggar

- **Ernest cassier** : langage et mythe à propos des noms et dieux ED. Minuit paris 1989.

- **Rolond- bar thes** : mythologie ED du seuil paris.

- **Max weber** le savoir et le politique .ED .BUSSIERE SAINT ARMOND 1991

- **G. Forsh** le nord africain-ed-paris v -1979

- **LHOTE (H)** LE HOGGAR –espace et temps .paris, Armand en vin 1942

- **regmond furon**, le SAHARA : géologie- ressources minérales mis en valeur, Payot, paris1957 p158

- **ROGNON (P)** 1967 de massif de l'atakor et ses bordures (sahra cesstral)

-Étude géomorphologique paris C.N.R.S P 24

- **Nour Eddine saoudi** – les Temps préhistoriques en Algérie- Edition Dalimén 2002

- **piere benoit**- touareg du nord -ed.paris pub 1977.

- **Wadi Bouzar**. La Mouvense et la pose . Ed . Sned. 1983.

-F.engels l'origine de la famille .paris ed.sociales 1971

- Andre simon ,les traditions des touaregs ed pais 1984,

- Philipe Gabi les touaregs,traditions et cotumes ed payot,1981

الاطروحات والرسائل الجامعية

الدكتور أوشاطر مصطفى

الأسطورة في التراث الشعبي الجزائري "أطروحة لنيل شهادة دكتور في الأدب الشعبي

2004-2003

-غمري يمينة-

-الفكر الأسطوري في الحكاية الشعبية . رسالة ماجستير في الأدب الشعبي

2002-2001

سرسریا

سرسریا

4 مقدمة:

المدخل : جغرافية المنطقة و تطورها التاريخي

14 أولا : تقديم الموقع جغرافيا

- 14 1-الموقع
- 16 2- لمحة عن جيو- مورفولوجية الأهقار
- 17 3- الأتاكور و سلسلة التطورات و الظواهر البركانية
- 18 4- الأسطورة و الجبال

19 ثانيا : تطور منطقة الأهقار منذ مرحلة ما قبل التاريخ

- 19 1-الأسطورة و التاريخ
- 20 2-التطور الحضاري و البشري- خلال العصور الحجرية القديمة
- 21 1-فترة العصر الحجري القديم الأسفل
- 21 2-فترة العصر الحجري القديم الأوسط
- 22 3-التطور الحضاري خلال العصر الحجري الحديث و فجر التاريخ

25 ثالثا : أثر البيئة على حياة التوارق

- 26 1-الأسطورة و أسرار الطبيعة
- 31 2-طبيعة البيئة الصحراوية

الفصل الأول : الأسطورة و الحياة الإجتماعية و الإقتصادية لقبائل الأهقار

34 أولا : الأسطورة و الحياة الإجتماعية

- 35 1- أسطورة تين-هنان
- 40 1-2 موطنهم
- 41 1-3 تسميتهم
- 43 1-4 لغتهم
- 46 2-التظيم الإجتماعي
- 50 2-1 القبائل
- 55 2-2 البنية الإجتماعية السياسية للقبيلة
- 58 2-3 نظام الحكم

- 50 3- طريقة الزواج عند توارق الأهقار
- 52 3-1 المهر
- 53 3-2 حفل الزفاف و عاداته
- 54 3-3 تجهيز العريس
- 55 3-4 عقيدة الإخصاب

58 ثانيا : الحياة الاقتصادية لتوارق الأهقار

- 58 1- الوصف الإيكولوجي لمنطقة الأهقار
- 59 2- الدورة لإيكولوجية
- 59 3- تقسيم العمل

..... الفصل الثاني : الأسطورة و الحياة الثقافية

76 أولا : اللباس تطوره و علاقته بالدين و البيئة

- 76 1- اللباس و الأساطير
- 78 2- أسطورة اللثام
- 30 2-1 خصائص اللثام التارقي
- 31 2-2 الدلالات الإجتماعية للثام
- 32 2-3 الدلالات الرمزية للثام

33 ثانيا : الرقص و الموسيقى عند التوارق

- 33 1- الرقص
- 34 1-1 ترانغاريت
- 35 1-2 رقصة الحرب أو تاكوبا
- 35 1-3 تهلقت
- 36 2- الموسيقى عند توارق الأهقار
- 37 2-1 الأسطورة و الرمز
- 38 2-2 الممارسات الموسيقية
- 38 1- آلة الطبل
- 39 2- آلة الإمزاد
- 32 3- مكانة الإمزاد عند التوارق
- 33 4- الإمزاد و الحروب
- 35 5- العادات المرتبطة بالإمزاد
- 36 3- آلة تازمارت
- 37 4- آلة التيندي
- 37 4- آلة الساج

99الخاتمة:
105ملحق الأساطير
115- المصادر و المراجع
122- الفهرس